أصحاب المعلقات السبع

(١) امرؤ القيس[١] (توفي نحو منتصف القرن السادس)

(١-١) حياته

هو امرؤ القيس بن حُجر الكندي، ولد في نجد، وأبوه ملك على بني أسد وغطفان، وقيل: إن أمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب والمهلهل، وقد اختلف في اسمه، والمشهور أنه يدعى جَندحًا، وله كنيتان وهما أبو وهب وأبو الحارث، وثلاثة ألقاب وهي ذو القروح[٢] والذائد[٣] والملك الضَّليل.[٤]

نشأ امرؤ القيس ميالًا إلى الترف واللهو شان أولاد الملوك، ونظم الشعر فتيًّا، وكان يتهتك في غزله ويفحش في سرد قصصه الغرامية، فغضب عليه والده ونهاه فلم ينته، فطرده فذهب يطوف في أحياء العرب وجماعة من أصحابه، يصطاد ويشرب الخمر وينظم الشعر وتغني له القيان، وبينما هو بدمُّون من أرض الشام أتاه نعي أبيه، وكان بنو أسد قد خرجوا عليه وقتلوه، فهبَّ للأخذ بثأره[٥] وأخذ يستنجد القبائل، فلم تنجده إلا قليلًا. فسار إلى القيصر يوستنيانوس في القسطنطينية فعطف عليه ووعده بأن يساعده على الإثئار لوالده. ثم ولاه فلسطين كما يقول المؤرِّخ الرومي «نونوز». فرحل إليها حتى بلغ أنقره فأصيب بداء الجدري فمات، ولذلك لقب بذي القروح.

ويعزى عطف القيصر على امرئ القيس؛ لأنه كان نصرانيًّا مثله. على أن هذا وحده لم يكن كافيًا لاهتمام يوستنيانوس بمساعدة الملك الطريد لولا طموحه إلى منافسة الأكاسرة، وبسط سيطرته على جزيرة العرب. ويظهر أن عقبات قامت دون بغيته فلم يستطع أن يعيد إلى الشاعر ملك أبيه فعوضه منه إمارة فلسطين.

وقد أحاطت بحياة امرئ القيس وموته طائفة من الأساطير فرأينا أن نضرب عنها صفحًا لعدم فائدتها.

(١-٢) آثاره

ديوان شعر طبع مرارًا، شرحه البَطَليوسي النحوي المتوفى سنة ١١٠٠م/٤٩٤هـ، وله المعلقة المشهورة، وهي أولى المعلقات تحتوي على ثمانين بيتًا من البحر الطويل نظمها على أثر حادثة جرت له مع ابنة عمِّه عنيزة، وكان يهواها، فوصف الحادثة، ثم انتقل إلى وصف الفرس والصيد والبرق والمطر.

(١-٣) الشاعر والطلل

يخبرنا الرواة أن امرأ القيس هو أول من ذكر الديار في شعره، فوقف عليها واستوقف، وبكى واستبكى في قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ ... ...

فاستحسن العرب منه هذه الطريقة، واتَّبعه عليها الشعراء، فأصبحت من بعده أسلوبًا تقليديًّا، يطوي القرون ويتخطَّى الأجيال، وفي كل عصر له أتباع وأنصار حتى أوائل القرن العشرين.

على أن الأمير الكندي ينفي عن نفسه هذه الأولية التي أضافها الرواة إليه، فيقول من قصيدة:

عُوجا على الطلل المُحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حِذامِ

فقد جعل نفسه تابعًا لغيره، لا مبتدعًا طريقة ذكر الديار والبكاء عليها، وإن كنا لا نعرف شيئًا عن هذا الباكي الأول. فلو لم يذكره امرؤ القيس في شعره، على فرض سلامة القصيدة من النحل، لما جاءنا عنه خبر من الرواة الأقدمين. قال ابن سلَّام في طبقات الشعراء: «هو رجل من طيئ لم يُسمع شعره الذي بكى فيه، ولا شعرٌ غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس.»

ويختلف الرواة في ضبط اسمه، فيقول بعضهم إنه ابن خذام بالخاء المعجمة، وبعضهم الآخر يرويه ابن حُمام، ولكنهم يقتصرون جميعًا على هذا الحد من التعريف به والتحدُّث عنه لجهلهم حقيقة أمره.

وسواء لدينا صحَّ وجود ابن حِذام أو لم يصح، وسواء بكى في شعره أو لم يبك، فإن الوقوف على الديار شيء طبيعي عند القبائل المترحلة ينشأ مع الشعب، ولا يُعرف له بَدء ولا مبتدئ. فإن البدوي المتنقِّل في صحرائه لا بدَّ له من المرور بأرضٍ كان ينزلها من قبل، فتعوده ذكريات حبيبة إلى قلبه تستثيرها بقايا الرسوم الدوارس من نُؤْي ودِمنة وموقِد، فيقف عليها وفي نفسه حنين إلى أيامه الخالية. فغير عجيب أن يبُثَّ خواطره شعرًا باكيًا، إذا كان من الشعراء، وإنما العجيب أن يُعرف هذا الشاعر الذي وقف قبل غيره، وبكى في عصر لم يكن أبناؤه مؤهلين لتدوين أدبهم وحفظه في الصحف، فيرجِع إليها الباحثون في خصائص الشعر الجاهلي وتطوُّراته، لا أن يكون المحفوظ لديهم ما تناقله الرواة شفهيًّا بعضُهم عن بعض أو عن القبائل البادية، مع ما في رواياتهم من خبط ونحلٍ وفقرٍ إلى التحقيق والتمحيص.

ولئن فاتنا شعر ابن حِذام لنتبين منه كيف ذكر الديار وبكى عليها، لقد جاءنا شعر عن أشخاص عاصروا امرأ القيس أو تقدموه يحمل إلينا صورًا جليّةً عن مذهب الوقوف والبكاء، مما يدل على أن هذه الطريقة كانت شائعة مشتركة بين شعراء الجاهلية، لا ينفرد بها أحدهم عن الآخر. فنجدها عند الحارث بن عُباد اليَشكُريِّ، والمُرقِّش الأكبر، وبِشر بن أبي خازم الأَسَدي، قال الحارث بن عُباد، وكان معاصرًا لكليب والمهلهل وشهِد حرب البَسوس:

هل عَرفتَ الغداةَ رسمًا مُحِيلا دارسًا بعد أهله مجهولا؟

وقال المرقِّش الأكبر:

هل يعرفُ الدارَ عفا رسمُها إلا الأثافيَّ ومَبْنى الخِيَمْ
أعرِفها دارًا لأسماءَ فالدّمعُ على الخَدَّينِ سحَّ سجَمْ

وتظهر هذه الطريقة واضحةً في شعر عبيد بن الأبرص الأسدي، وكان نديمًا لوالد امرئ القيس ملك بني أسد وربيعة، ثم انقلب عليه منحازًا إلى قبيلته الغاضبة؛ لما لقيت

من جور الملك الكندي، ولم تلبث أن انتقضت عليه وقتلته. فأخذ امرؤ القيس يهدد بشعره بني أسد، وعبِيد يرُدُّ عليه مدافعًا عن قومه.

وقد أكثر عبيد من ذكر الديار والبكاء عليها، ولم يفته استيقاف الصَّحْب كما فعل امرؤ القيس في معلقته، فمن قوله:

أمن منزلٍ عافٍ ومن رسم أطلالِ بكيتُ وهل يبكي من الشوق أمثالي؟

وقوله:

دار وقفتُ بها صَحبي أسائلُها والدمع قد بلَّ مني جيب سِربالي

فهذان البيتان يذكِّران أسلوب الشاعر الكندي، ويعطيان أمثلة صالحة عن الطريقة التقليدية التي يضيفها الرواة إليه. فهل تأثر الشاعر الشيخ بأسلوب الشاعر الفتى، فترسَّمه في الوقوف والاستيقاف والبكاء على الديار؟ أم هل تلمذ أمير بني كندة لنديم أبيه، فسار على خُطاه، واشتقَّ أسلوبه من أسلوبه؟

قد يحتَمل الأمران، وإن كنا نؤثر امرأ القيس على عَبيد، ونعلم أنه أقدر على الإبداع من شاعر بني أسد. ولكن الأسلوب التقليدي — كما يظهر — كان شائعًا في عصر الملك الضليل أو قبل عصره. فأكثر الشعراء وقفوا واستوقفوا واستنطقوا الديار وبكوا عليها، ولعل شاعرنا الكندي ظهر على غيره، في هذه الطريقة؛ لمكانته الملوكية من جهة، ثم لاستطالته في الشعر على معاصريه من جهة أخرى، وليس علينا أن ننسى معلقته وسواها من قصائده التي لا يقف أمامها شعر عبيد وغيره من الجاهلين المتقدمين. وكذلك ابتداءاته التي ذكر فيها الديار، ولا سيما مطلعُ معلقته، فإنه أجمع كلمة لطريقة الوقوف والاستيقاف والبكاء والاستبكاء حتى ضُرب به المثل، فقيل: أشهر من قِفا نبكِ، ولم يبق شاعر في الجاهلية وصدر الإسلام إلا اعتمد هذه الطريقة وطبع على غرارها. حتى جاء العصر العباسي، فتبنَّاها ولكن بعدما حلاها بالوشي الجديد والاستعارات الحضرية، ولم تحرَم في القرن العشرين شعراء يحنون إليها.

(١-٤) أسلوبه وشاعريته

إذا كان الشاعر الذي يحدثنا عن ذاته راويًا أخباره في صلاحها وفسادها، كاشفًا عن خبايا نفسه في لذاتها وآلامها، يدعى شاعرًا شخصيًّا، فأولى منه بهذا اللقب شاعر يترك من أسلوبه طابعًا متميزًا يُعرف به ويُنسب إليه مهما يكثر مقلدوه.

وكان امرؤ القيس شاعرًا شخصيًّا في ظهور ذاتيته لا يأتلي أن يطالع الناس بأحواله وأسرار حياته، يقص أحاديث لهوه بـ «آنسة كأنها خط تمثال». ولا يغفل عن لهوه بالصيد عاديًا على «كميت» وراء «الهاديات».

وهو في أثناء هذا وذاك يطلُّ بجلالته الملوكيَّة مستخفًّا «بأحراس ومعشر» لا يقدمون على قتله جهارًا «عليَّ حراصًا لو يُسرُّون مقتلي»، تاركًا بعل سلمى «كاسف اللون والبال» ...

يغِطُّ غطيط البكر شُدَّ خِناقه ليقتلني والمرءُ ليس بقتَّالِ

مغتديًا إلى الصيد تتبعه الحاشية شأن الملوك، وتنضج الطهاة له «صفيف شواء أو قدير معجل» ساعيًا لمجده المؤثل «وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي» لاحقًا بقيصر ليسترجع ملك أبيه «نحاول مُلْكًا أو نموت فنعذرا.»

ولو اقتصرت شخصية امرئ القيس على ظهور ذاتيته لأمسى شعره شيئًا مألوفًا في الشعراء. ولكنه كان إلى ذلك شخصي الأسلوب، متميِّز الطابع، فتح كنوز الشعر لمن جاء بعده، وهداهم إلى أغراضه وفنونه، فترسموه وساروا على طريقه، عصورًا وأجيالًا، يتنحلون أسلوبه، ويطبعون على غراره، ولا يدركون له شأوًا.

وقلما قرأنا لشاعر قديم، أو محدث غارق في القديم، إلا رأينا صورة امرئ القيس ماثلة خلال سطوره، حتى الذين حاولوا التجديد في العباسيين — كأبي نواس — كانوا ألصق الناس به في ابتعادهم عنه.

فهذا الأسلوب الذي كتب له العمر الطويل، ولا ينفكُّ يستأثر بطابع صاحبه، هو الذي حمل الرواة الأقدمين على أن يجعلوا له خصائص وأوليات لا يسعنا إلا ذكرها مع ما قدمنا من الاعتراض عليها في كلامنا على الشاعر والطلل. فمن التقليد المتعارف عند الرواة أن الشاعر الملك سبق إلى أشياء ابتدعها، فاستحسنتها العرب، واتبعته عليها الشعراء. فكان أول من وقف على الطلول، واستوقف، وبكى واستبكى، وأول من قيَّد الأوابد، وشبَّه

النساء بالظباء والبيض، والخيل بالعقبان والعصي، وأجاد في التشبيه، وأرقَّ النسيب، وفصل بينه وبين المعنى.

وكتب الأدب قديمها وحديثها تتفق على ترديد هذه الرواسم كلما تكلمت على شاعرية امرئ القيس وتقدمه في الشعراء. وبهذه الأوليات يميِّزون أسلوبه، وإن تكن لا تعطينا إلا صورة مصغرة عنه. ونحن إنما نفهم الأسلوب في معناه الشامل، أي ما تناول الموضوع والروح واللغة والفن. ولا نستطيع أن نستجلي شخصية الشاعر في أسلوبه إلا إذا أخذنا شعره من هذه النواحي وألمنا بميزاتها.

وقد علمنا أنه شخصي الموضوعات، تدور أغراضه على حوادثه وأخباره. فإذا تتبعناها ألفيناها تُختصر في غزله وذكر مغامراته الحبية، وصيده وجواده، وطوافه على القبائل يمدح أنصاره، ويهجو أعداءه وخاذليه، وسفره إلى القسطنطينية يستنجد القيصر ليساعده على استرجاع ملك أبيه. وهذه الأغراض قائمة على ركنين من الفن: الوصف والقصص، تطفو عليهما ذكريات عميقة، فيها شعور قوي باللذة، وفيها شعور قوي بالألم، ويتجاذبها من الصوبين تعهُّر واستسلام إلى الشهوات والملاهي، ونفحة من عزة الملوك وترف الأمراء.

ويصف امرؤ القيس ويقص، وقلما قاده الوصف والقصص إلى التفصيلات والتحليلات النثرية، فيهبط من جوه الشعري؛ لأنه يتناول هذين الفنين، في الغالب، لمحًا ووثبًا، فيلقي نظرًا شاملًا على المرأة والجواد والطبيعة، ويخرج لها صورًا متعددة الأشكال تحيط بالموصوف على أنواعه، ولكنها لا تقتصر على نقله نقلًا آليًّا ساذجًا بصورته ومثاله، بل تستوحيه أحيانًا لتخلقه خلقًا عبقريًّا جديدًا فيه شيء من الحقيقة، وفيه أشياء من الخيال المبدع، كقوله في صفة الجواد:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مدبرٍ معًا كجلمود صخرٍ حطه السيلُ من عَلِ

أو قوله في صفة الليل الطويل:

فقلتُ له لما تمطَّى بصلبه وأردف أعجازًا وناء بكَلْكَلِ

وأمثال هذه الصور البارعة كثيرة في شعره.

وإذا روى خبرًا لا يسترسل في سرده وتفصيله؛ بل يوجزه في بضعة أبيات، يشتمل قليلها على الحوار اللذيذ، وعلى تصوير نفسيات الأشخاص وعواطفهم، ولا يخرج عن كونه شعرًا قبل كلِّ شيء، ولنا مثال على جمال قصصه قوله:

سموت إليها، بعدما نام أهلُها سموَّ حبابِ الماءِ حالًا على حالِ

وما بعده من أبيات إخبارية تعطينا صورة جلية عن الشاعر المتهتك المغامر، الساخر بمن دونه، المعتز بسيفه وسهامه، وترينا زوجًا ضعيفًا، يرى الفضيحة على أهله فتخنقه الغيرة، فيهدد ويتوعد ولكنه لا يصنع شيئًا. وتبرز لنا صورة مغشاة للمرأة في خوفها وحذرها، في ضعف إرادتها واستسلامها.

واللمحات القصصية يحفل بها شعر الملك الضليل ممتزجة بالوصف اللمَّاح، وكلاهما يعتمد على صناعة التشبيه خصوصًا، والاستعارات والكنايات عمومًا، والتشبيه ركن عظيم في شعر صاحبنا، لا يتخلى عنه في إظهار صوره وألوانه. يستمده على الغالب من الطبيعة، ولا يبالي أن يأخذ ما نستهجنه اليوم ونجده منحطًّا عن المشبه به. ولكن علينا أن لا ننسى أنه شاعر بدوي فطري وإن كان ملكًا مترفًا، والفطرة لا تتأبَّى هذه الأشياء التي نتأباها نحن. فمن العدل أن ننظر إليه بعين عصره حين نسمعه يقول:

أيقتُلني وقد قطرتُ فؤادَها كما قَطَرَ المهنوءةَ الرجلُ الطالي[٦]

أو يقول:

وتعطو برخصٍ غير شَثنٍ كأنه أساريعُ ظبي أو مَساويكُ إسحِلِ[٧]

والأساريع دود صغار شبَّه بها الأصابع في طراوتها.

وقد يتناول التشبيه من الحجارة الكريمة والطيوب المتنوعة، والحرير والدمقس والمرآة، مما يدل على نعمته وترفه؛ لأن هذه الأشياء لم يعرفها في الجاهلية غير الموسرين والأمراء.

وجمال التشبيه عنده يقوم على غرابته وبُعد متناوله، وما فيه من التصوير والتمثيل، والحركة، كقوله:

أصاح ترى برقًا أريك وميضَه كلمع اليدين في حَبيٍّ مُكلَّلِ[٨]

أو قوله:

فعنَّ لنا سربٌ كأنَّ نِعاجَه عذارى دَوار في مُلاءٍ مُذيَّلِ[٩]

وهذا النوع كثير في تشابيهه، ويزيده حسنًا ما يطوف به من غموض مستحبٍّ، لا نتبين فيه وجه الشبه إلا استشفافًا، فنلمحه لمحًا خفيفًا، ولا نستوضحه جليًّا، فيترك في أنفسنا أثرًا للذة، ونحن نتتبعه ونتقصاه على غير خيبة تامة.

وسرُّ الجمال في تشابيهه التصويرية: أن المشبه به لا يشتمل على وجه تام للشبه، وإنما فيه ناحية خفية تجمعه بالمشبه. فهذه الناحية البعيدة يلمحها الشاعر بقوة تصوره، ويعتمد عليها في الجمع بين شيئين هما في حقيقتهما لا يجتمعان، كقوله:

سموتُ إليها بعدما نام أهلها سُموَّ حباب الماء حالًا على حالِ

أو قوله:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مدبرٍ معًا كجُلمود صخرٍ حطَّه السيل من عِلِ

فلولا الصورة التمثيلية التي نجدها في البيتين لما كان من جامع بين الشاعر والماء، وبين الجواد والصخر، فقد جعل من خفة حركة الماء في تصاعد حببه شبهًا بخفة وصوله إلى حاجته دون أن يحدث جلبة. وجعل من الصخر الذي حطَّه السيل من جبل عالٍ فمضى يتقلب ظهرًا لوجه، يتنزى على الصخور يمنة ويسرة، هبوطًا وارتفاعًا، جامعًا بينه وبين جواده في سرعة كره وفره، حتى لا يفرق بينهما لشدة اندفاعه.

وهذا الغموض الذي نقع عليه في شعر امرئ القيس، سواءٌ كان بتشبيه أو بغير تشبيه، يمكننا أن نعده من محاسن أسلوبه؛ لأنه ليس من الشعر المغلق المعمى الذي يتيه القارئ في ديناميسه دون أن يجد لها منفذًا، وإنما هو ذلك اللمح الذي أشار إليه البحتري بقوله:

والشعرُ لمحٌ تكفي إشارته وليس بالهَذرِ طُوِّلت خُطَبُهْ

أو هو ذلك الغموض الذي عرَّفه أبو إسحاق الصابي فقال: «إن طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه؛ لأن الترسل هو ما وضح معناه، وأعطاك سماعه في أول وهلة. وأفخر الشعر ما غمض فلم يُعطك غرضه إلا بعد مماطلة.»

ولامرئ القيس لغة تتجاذبها صلابة البدوي وخشونته، ورقة المتحضر المترف وسلاسته، فيها إيجاز بليغ امتازت به لغة الجاهليين على السواء، وفيها تعابير اختصَّ بها الشاعر واصطلح عليها، فردَّدَها غير مرة في مختلف قصائده، فما نخطئ نسبتها إليه عندما نقع عليها كقوله: «وقد أغتدي والطير في وكناتها، بمنجرد قيد الأوابد، درير كخذروف الوليد، له أيطلا ظبي وساقا نعامة إلخ ...» فعُرفت له هذه الأشياء وأمثالها، وهي بعض خصائص أسلوبه.

وامتازت لغته بالروعة الفنية، فكانت خير صلة بينه وبين قارئه، تؤدي ألفاظه مهمتها في التعبير عن حالته التي يحسها ويتصورها، وفي الإيحاء الذي يحمل القارئ إلى دنيا الشاعر فيجعل حاله كحاله مستمتعًا بمتعته، وهذا حدُّ الفن في الأدب، فالشاعر الذي تعجز ألفاظه عن تأدية فكرته وإحساسه وخياله، يسقط أدبه؛ لأن قيمة الأدب بنقله إلى القارئ، وطبيعي ليس إلى أي قارئ كان، وإنما نريد به من حصلت له ملكة التذوق الأدبي.

ففي شعر امرئ القيس من الانسجام والائتلاف اللفظي ما يبعث منه أجراسًا موسيقيةً تتناولها الأذن بلذة، فتدفعها إلى النفس بما فيها من ألوان وتصور وشعور. وقد تكون لغته الشعرية مألوفة الاستعمال تعبر بحقيقة معاني ألفاظها تعبيرًا قويًّا عن حالته النفسية كقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... ...

وقد تكون غير مألوفة الاستعمال يخلقها الشاعر خلقًا، ويعطي ألفاظها معاني رمزية مجازية، فيها من قوة الإيحاء ما تعجز الألفاظ الحقيقية أن تقوم به فيما لو أريد التعبير بها عن هذه الفكرة في قوله:

فقلت لهُ لما تمطَّى بصُلبه وأردف أعجازًا وناءَ بكَلكَلِ

والأجراس الموسيقية تقوم إما على ألفاظ مفردة «يغط غطيط البَكر» أو على انسجام التركيب كمطلعه «قفا نبك» أو على تداعي الحروف والحركات «مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مدبرٍ معًا» تدفعها جميعًا تموُّجات تطول وتقصر بحسب الحالة التي تستدعيها. فالتموجات القصيرة في «مكرٍّ مفرٍّ» ملائمة كل الملائمة لسرعة الجواد في عدوه، والتموجات الطويلة في قوله:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدولَه عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

يتطلبها طول الليل، وهذا النَّفَس الممتد الذي يقصر عنه البحر الطويل.

والإيحاء الذي تتولى الألفاظ توليده يجعلنا نقبل — ونحن في نشوة الأدب — آراءً وأفكارًا نرفضها عندما نعود إلى حياتنا المألوفة. فالقطعة القصصية التي يحدثنا بها الشاعر عن زيارته الليلية لسلمى، تأباها الأخلاق القويمة، وترفضها الشرائع الدينية والمدنية. بيد أننا نقبلها في الأدب على غير إرادة منا، فتبتهج بها نفسنا، ونستمتع بجمالها الفني دون أن نشعر بقبحها؛ لأن النفس في مثل هذه الحال تأخذها أخذًا ساميًا مطهرًا للعواطف Catharsis على حد تعبير أرسطو. ففضل الأدب الخالص أن فيه جمالًا خاصًّا لا يشاركه فيه الجمال الذي اصطلحنا على اعتباره، ولا يشوِّهه القبح الذي نستنكره ونبتعد عنه، إلا إذا حكمنا العقل والمنطق فيه، وشعر امرئ القيس يتحلى بهذا الجمال الفني على ما فيه من قبح وفجور، فكيف به لو خلا منهما.

وبهذا يتميز أسلوبه كما يتميز بروحه ولغته وموضوعاته، وبأسلوبه استطاع أن يكون شاعرًا شخصيًّا، كما كان شاعرًا شخصيًّا في ظهور ذاتيته، وبه وحده تجلَّت عبقريته، فاعترف الناس له بإمارة الشعر، ولم يطمع فيها يومًا، ولا خطرت له ببال.

(١-٥) درس تاريخي

قلنا في ترجمة امرئ القيس: «وقيل إن أمه فاطمة بنت ربيعة، أخت كليب والمهلهل.» وهذا هو المشهور عنه. غير أننا لا يسعنا ونحن ندرس شعره، إلا أن ننظر إلى هذا النسب بشيء من الاحتياط والشك. فليس في أشعار الملك الضليل ما يدلنا على هذه القربى حتى نؤمن بها، فلو كان كليب والمهلهل خاليه لما استنكف أن يذكرهما مفتخرًا، أو أن يشير إلى الوقائع التي انتصر فيها التغلبيون على البكريين في حرب البسوس.

ورُبَّ معترض يقول: إن شعر امرئ القيس ضاع أكثره لتقادم العهد، ولم يصل إلينا منه غير القليل. ونحن لا نخالفه في ذلك، ولكن هذا القليل كان كافيًا للدلالة لو صحَّت القربى. فلامرئ القيس قصيدة يفتخر بها ويذكر أخواله وأعمامه إذ يقول:

خالي ابنُ كبشةَ قد علِمتَ مكانَهُ وأبو يزيدَ ورهطُه أعمامي

فمن هذا ابن كبشة؟ ... إنه غير كليب والمهلهل، فما كان ابنا ربيعة ينتسبان يومًا إلى «كبشة»، ولو أراد امرؤ القيس أحدهما لذكر اسمه واستقام له وزن البيت، ولكنه يشير إلى سواهما لأنهما ليسا بخاليه.

على أن هذا لا يمنع أن يكون والد امرئ القيس تزوج فاطمة بنت ربيعة، إلا أن الشاعر ليس منها بل من ضرَّة لها. ولعل فاطمة هذه هي التي تعشَّقها وتغزل بها في معلقته إذ يقول:

أفاطمَ مهلًا بعضَ هذا التدللِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرمي فأجملي[١٠]
أغرَّكِ مني أن حبك قاتلي وأنكِ مهما تأمُري القلبَ يفعلِ؟

وحبه لامرأة أبيه مشهور، وقيل: إن والده طرده من أجل ذلك.

وزعم الرواة أنه أحب ابنة القيصر، وأنها هي التي أشار إليها بقوله:

سموتُ إليها بعدما نام أهلُها سُموَّ حبابِ الماء حالًا على حالِ

وقيل إن أباها علم بأمرهما فزوجه إياها. أما نحن فنرى أن القصيدة نُظمت بعد موت والده، ولكن قبل سفره إلى القسطنطينية، ودليلنا على ذلك أن الشاعر يقول قبل أن يسمو إليها:

تَنوَّرتُها من أذرعاتٍ وأهلُها بيثربَ أدنى دارِها نظرٌ عالِ[١١]

فأين يثرب من القسطنطينية؟ …
ويقول أيضًا في مكان آخر:

فأصبحتُ معشوقًا وأصبح بعلُها عليه قتامٌ كاسِفَ اللونِ والبالِ[١٢]

فأنت ترى أنه يتغزل بآنسة متزوجة، والرواة يحدثوننا أن ابنة القيصر كانت عزبة وقد تزوجها امرؤ القيس، وهبها كانت ذات بعلٍ فليس من المعقول أن يسخر الشاعر من زوجها ويحتقره، وهو صهر القيصر، أو ينسب إليه الضعف والخنوع والمذلة، وهو أعزُّ منه جانبًا، في كنف ملك يفزع إليه امرؤ القيس طريدًا مستنجدًا ينشد عرشه الهاوي.
ودليلنا على أنه نظم القصيدة بعد موت والده هو قوله:

فلو أنني أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلبْ قليلٌ من المالِ
ولكنني أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقد يدركُ المجدَ المؤثَّلِ أمثالي[١٣]

فهو يشير هنا إلى سعيه لاسترجاع ملك أبيه.
وحدثنا الرواة أن امرأ القيس سافر إلى القسطنطينية مستغيثًا بقيصر، ولم يذكروا له غير هذه السفرة إلى بلاد الروم. على أننا نعتقد أن الشاعر عرف تلك البلاد قبل التجائه إلى مليكها، واطلع على حضارتها فأثرت في خياله الشعري فوسعته، وظهر هذا التأثير في تشابيهه اللطيفة، وابتكاره للمعاني والألفاظ، ودليلنا على أن معرفته لبلاد الروم لا تقتصر على الزيارة الأخيرة، قوله في معلقته:

مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضةٍ ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[١٤]

فاستعماله لفظة السجنجل — وهي رومية الأصل — ينبئ اختلاطه بالأروام قبل نظم المعلقة وقبل مقتل أبيه. وله قصيدة يصف بها سفره إلى قيصر مستنجدًا على بني أسد، يقول فيها:

لقد أنكرتني بعلبكٌ وأهلُها ولابنُ جريجٍ في قُرى حمص أنكرَا

فإنكار بعلبك وأهلها، وإنكار ابن جريج له دليل على أنه يعرف تلك البلاد وله فيها معارف وخلان.

(١-٦) صحة شعره

ولا بدَّ لنا — ونحن ندرس شعر امرئ القيس — أن ننظر فيه إلى صحيحه من منحوله، فقد نُسب إلى الملك الضَّليل ما ليس له كما نُسب إلى غيره من الشعراء الأقدمين. ولسنا نزعم أننا نبلغ الحقيقة كلها في درسنا هذا؛ إذ من الصعب الوصول إلى نتيجة تامة في مثل هذه الأمور. على أننا نرجو أن نأتي بشيء لا يخلو من فائدة.

ممن المعلوم أن شعر امرئ القيسضاع أكثره لبُعد أيامه ولم يصل منه إلا النزر اليسير، ولكن هذا النزر اليسير لم يسلم من النحل والاصطناع. فالرواة أنفسهم يشكُّون في هذه الأبيات من المعلقة، ويضيفونها إلى تأبّط شرًّا، وهي:

وقِرْبَةِ أَقْوَامٍ جَعَلْتُ عِصامَهَا على كاهِلٍ مني ذَلُولٍ مُرَحَّلِ[١٥]
ووادٍ كجَوْفِ العَيرِ قَفْرٍ قطعْتُهُ بِهِ الذّئبُ يَعْوي كالخليعِ المُعيَّلِ[١٦]
فقُلتُ له لمَّا عَوَى إنَّ شَأنَنَا قليلُ الغنى إن كنتَ لمَّا تَمَوَّلِ[١٧]
كِلانا إذا ما نالَ شيئًا أفاتَهُ ومَن يحترِثْ حَرْثي وحَرْثَكَ يهْزِلِ[١٨]

ونحن نرى أن حمل القربة، وقطع الأودية الخالية، ومعاشرة الذئاب، والافتقار، وهزال العيش شيءٌ أولى بصعلوك يعيش في البراري والغابات كالشنفرى وتأبَّط شرًّا منه بملك كامرئ القيس؛ أنيق العيش، وافر النعمة، تتبعه الطهاة والخدم في حله وترحاله.

ونُسبت إليه قصيدة في التهديد مطلعها:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالأَثْمُدِ ونامَ الخَلِيُّ ولم تَرْقُدِ[١٩]

وهي في «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص» لامرئ القيس بن عابس الكندي أحد الصحابة، ولعلَّ وحدة الاسم بين الشاعرين جعلت بعض الرواة يضيفونها إلى الملك الضليل، ويزعمون أنه يهدد بها بني أسد، على حين أنه ليس فيها ما يشير إلى مقتل أبيه أو إلى بني أسد الذين قتلوه. ومثلها الأبيات التي لُقب من أجلها بالذائد وهي:

أَذُودُ القَوافِيَ عَني ذِيادا ذِيادَ غُلامٍ جَريءٍ جَرادا[٢٠]
فلَمَّا كَثُرْنَ وعَنَّيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ شَتى جِيادا[٢١]
فأَعْزِلُ مَرْجانها جانِبًا وآخُذُ مِنْ دُرِّها المُستَجادا[٢٢]

فابن الكلبي يقول إنها لامرئ القيس بن بكر، وغيره يزعم أنها لامرئ القيس بن عباس. وهذا الاختلاف بين الرواة راجع — كما لا يخفى — إلى تشابه الأسماء والتباسها. على أننا لا نرى في الأبيات الثلاثة ما يحملنا على نسبتها إلى شاعر جاهلي، فهي في اعتقادنا مصنوعة في الإسلام لتبيان سبب لقبه، ثم للاستشهاد بها على أن شعراء الجاهلية كانوا يعنون بتنقية أشعارهم فيطرحون منها الرديء ويختارون الحسن.

وأُضيفت إليه أشعار بعد رجوعه من القسطنطينية ومرضه حتى موته في أنقره. ولكننا لا نستطيع أن نطمئن إلى صحتها؛ لظهور الاصطناع على أكثرها. مثال ذلك، ما رواه الأغاني من أن الشاعر رأى قبر امرأة ماتت وهي غريبة فدفنت في سفح جبل يقال له عَسيب، فسأل عنها وأُخبر بقصتها فقال:

أَجَارَتَنَا إن المَزَارَ قريبُ وإني مُقيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ
أَجَارَتَنَا إنَّا غَريبانِ هٰهُنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نَسِيبُ

فتفنن الرواة ظاهر في اختراع القصة والبيتين، والأعجب أن عسيبًا جبل بعالية نجد لا في أنقره من بلاد الروم.

ونُسبت إليه مماتنات مع شعراء عصره. منها مماتنته للحارث بن التَّوأم اليَشكُريِّ التي يقول في مطلعها:

أحَارِ تَرى بُرَيْقًا هبَّ وَهْنا[٢٣]

فيجيبه التوأم مجيزًا:

كَنارِ مَجُوسَ تستَعِرُ استِعارا

ومنها مماتنته لعَبيد بن الأبرص، وهي أشبه بأحاجي كتَّاب المقامات وألغازهم، ولا ريب أنها منحولة. قال عبيد في مطلعها:

ما حَيَّةٌ مَيتَةٌ قامَتْ بمَيتَتِها دَرْداءُ ما أنْبَتَتْ سِنًّا وأضْرَاسا[٢٤]

فأجابه امرؤ القيس:

تلكَ الشَّعيرَةُ تُسْقى في سَنابِلِها فأخرَجَتْ بعدَ طُولِ المُكْثِ أكداسا

على أن هذه الأشعار المصطنعة في الإسلام ليس من شأنها أن تلقي الشكَّ على شعره أجمع، ولا سيما المعلقة وأمثالها من القصائد المشهورة، وإن لم تسلم من التحريف والتبديل.

(١-٧) منزلته

هو في مقدمة شعراء الطبقة الأولى، وأبعدهم شهرة، وأسبقهم إلى الاختراع والابتكار. فقد رأيت مما تقدم ما لشعره من الميزات الكثيرة من حيث الجزالة والروعة والإيجاز، ولطف التشبيه والاستعارة ودقة الوصف، ولا سيما وصف الفرس والصيد والمطر. وقد اتفق الرواة على تفضيله. ونُسب إلى النبي محمَّد قوله فيه: «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء وقائدهم إلى النار.» وذكروا عن الإمام علي أنه فضَّله بقوله: «كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة.» وصفوة القول أن امرأ القيس أمير الدولتين: دولة الشعر ودولة بني كندة.

(٢) طرفة بن العبد (الربع الثالث من القرن السادس)

(٢-١) حياته

هو عمرو بن العبد البكري، وطَرفة لقب غلب عليه. ولد في البحرين ونشأ يتيم الأب في بيت غني، كريم المحتد، فانصرف إلى اللهو والخمر والنساء، ينفق عليها بغير حساب، فضيَّق عليه أعمامه وأبوا أن يقسموا ماله، وجاروا على أمه وردة أخت المتلمس الشاعر، فظلموها حقها، فهددهم طرفة بهذه الأبيات، وهي من أوائل نظمه:

ما تَنظُرُونَ بحقِّ وردَةَ فيكمُ صَغْرَ البنونَ ورهطُ وردةَ غُيَّبُ[٢٥]
قد يَبعَثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ حتى تَظلَّ له الدِّماءُ تَصَبَّبُ[٢٦]
والظُّلْمُ فرَّقَ بينَ حيَّيْ وائِلٍ بَكْرٌ تُساقِيها المنَايا تَغلِبُ[٢٧]

على أن جور أعمامه لم يمنعه من الإسراف واللهو؛ فظل ينفق من ماله على أصحابه وخلَّانه حتى لم يبق له شيءٌ، فسخطت عليه عشيرته وابتعدت عنه؛ فأصبح معزولًا كالبعير الجرب، وإلى ذلك يشير في معلقته:

ومازَالَ تَشرَابي الخمُورَ ولَذَّتي وبَيعي وإنفاقي طريفي ومُتلَدي[٢٨]
إلى أن تحامَتْني العشيرةُ كلُّها وأُفرِدتُ إفرادَ البعيرِ المعبَّدِ[٢٩]

وساء طرفة أن يعرض عنه أهله فتركهم مدة قضاها بالغزو والتطواف، ثم عاد إليهم نادمًا، صفر اليدين، فحمله أخوه مَعبَد على رعاية إبله فأهملها، وأنَّى لمثله أن يحسن رعايتها؟ فأنبه معبد وقال له: «تُرى إن أُخذت تردُّها بشِعرك هذا؟» فقال طرفة: «لا أخرج حتى تعلم أن شعري يردُّها.» ولم يطل الأمر حتى أُخذت الإبل فألحَّ عليه أخوه بردِّها، فلجأ طرفه إلى ابن عمه مالك ليعينه على استرجاعها من آخذيها وكانوا قومًا من مضر، فانتهره مالك بعنف فتألم الشاعر ونظم معلقته واصفًا حالته وجور أهله عليه، وعرض فيها لذكر سيدين من أقربائه، فمدحهما بكثرة المال والولد إذ يقول:

فلَوْ شاءَ رَبْي كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ ولو شاءَ ربِّي كنتُ عمرو بنَ مَرثَدِ

فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارني بَـنُـونَ كـرامٌ سـادةٌ لـمُـسَـوَّدِ[٣٠]

فدعاه أحدهما (عمرو)، وكان له سبعة أولاد فأمرهم، فدفع كل واحد إلى طرفة عشرة من الإبل، ثم أمر ثلاثة من أبناء بنيه فدفعوا إليه مثل ذلك، فردَّ إبل أخيه وقد ردَّها بشعره — كما قال — وأقام ينفق من الباقي حتى نفد. فاتصل بعمرو بن هند ملك العراق، وكان صهره عبد عمرو بن بِشر وخاله المتلمس الشاعر من رجال الحاشية، فقرَّب الملك طرفة لإعجابه بِشعره.

ولكنَّ الشاعر الفتى كان تيَّاهًا فخورًا بنفسه، فشبَّب بأخت الملك غير مبالٍ، فأبعده عمرو بن هند عن حاشيته وجعله في حاشية أخيه قابوس فلم يجد منه ما تعوده من الإكرام؛ فهجاه وهجا أخاه الملك هجاءً مرًّا. من ذلك قوله:

فليتَ لنا مكانَ المَلْكِ عَمرٍو رَغوثًا حَولَ قُبَّتِنا تَخُورُ[٣١]
لعَمَرُكَ إنَّ قابوسَ بنَ هِندٍ لَيَخْلِطُ مُلْكَهُ نَوْكٌ كَثيرُ[٣٢]

ولكن لم يجرؤ أحد أن ينقل هذا الهجاء إلى عمرو.

وشكت ذات يوم أخت طرفة شيئًا من أمر زوجها عبد عمرو؛ فهجاه طرفة بأبيات منها:

ولا خيرَ فِيهِ غيرَ أنَّ له غِنًى وأنَّ له كشحًا إذا قام أهضما[٣٣]

وهذا ما يسميه علماء البيان توكيد الذم بما يشبه المدح. فإنَّه بعد أن نفى الخير عنه جاء بالاستثناء كمن يريد أن يذكر له حسنة يمدحه بها، فإذا به لا يرى فيه من الحسن غير كثرة المال ولطف الخصر، ومن الهجاء المرِّ أن تصف رجلًا بما توصف به النساء.

واتفق أن عمرو بن هند خرج للصيد ذات يوم، فانقطع في نفر من أصحابه وفيهم عبد عمرو، حتى أصاب حمارًا فعقره، فقال لعبد عمرو: انزل واذبحه. فعالجه فأعياه، فضحك الملك وقال: لقد أبصرك طرفة حيث يقول، وأنشد: «ولا خير فيه.» فغضب عبد عمرو وقال: لقد قال في الملك أقبح من هذا، وأنشده: «فليت لنا مكان الملك عمرو ...» فحقد عمرو بن هند على طرفة، ولكنه كره أن يعجل عليه إشفاقًا من هجاء المتلمس،

فلبث يتحين الفرص ليتخلص من الاثنين معًا، وهو يؤانسهما حتى اطمأنَّا إليه، فكتب إلى عامله في البحرين، وقال لهما: انطلقا إليه وخذا جوائزكما.

فحملا الكتابين وسارا حتى بلغا النجف، فقال المتلمس لطرفة: تعلمنَّ والله أن ارتياح عمرو لي ولك لأمر عندي مريب. وإني لا أنطلق بصحيفة لا أدري ما فيها. فقال طرفه: «إنَّك لتسيء الظن، وما تخاف من صحيفة؟ إن كان فيها الذي وعدنا وإلا رجعنا فلم نترك منه شيئًا.» فأبى المتلمس أن يجيبه وعدل إلى حيث رأى غلامًا من الحيرة فدفع إليه الصحيفة ليقرأها له، فلما نظر الغلام فيها قال: «ثكلت المتلمِّس أمَّه!» فأخذ المتلمس الصحيفة وقذفها في البحيرة فضُرب المثل بصحيفته. ثم قال لطرفة: «تعلمنَّ والله أنَّ الذي في كتابك مثل الذي في كتابي.» فقال طرفة: «لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجترئ عليَّ.» وأبى أن يطيعه، فتركه المتلمس وهرب إلى الشام.

وسار طرفة حتى أتى البحرين وكان صاحبَها أبو كرب ربيعة بن الحارث، وهو من أقرباء طرفة، فلما قرأ الكتاب قال: «أتعلم ما أُمرت به فيك؟» قال طرفة: «نعم، أُمرتَ أن تجيزني وتحسن إليَّ.» فقال: «إن بيني وبينك لَخئولة أنا لها راعٍ، فاهرب من ليلتك هذه، فإني قد أُمرت بقتلك. فاخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناس.» فأبى طرفة وقال: «اشتدت عليك جائزتي، وأحببت أن أهرب وأجعل لعمرو بن هند عليَّ سبيلًا، كأنني أذنبت ذنبًا. والله لا أفعل ذلك أبدًا.» فأمر بحبسه. ثم كتب إلى عمرو بن هند يقول: «ابعث إلى عملك من تريد فإني غير قاتل الرجل.» فأرسل عمرو بن هند رجلًا من بني تغلب يقال له عبد هند واستعمله على البحرين، وكان رجلًا شجاعًا، وأمره بقتل طرفة وقتل ربيعة بن الحارث. فقدمها عبد هند ولبث أيامًا فاجتمعت بكر بن وائل فهمَّت به، وكان طرفة يحضهم. فانتدب له رجلًا من الحواثر يقال له أبو ريشة فقتله وقتل معه العامل السابق. وكان قبره معروفًا بهَجَر في أرض بني قيس بن ثعلبة.

(٢-٢) درس تاريخي

هذه هي الرواية المشهورة عن مقتل طرفة، وقد تناقلتها كتب الأدب في شيء من الاختلاف. أما نحن فلا يسعنا إلا أن ننظر إليها بشكٍّ واحتياط لظهور الاصطناع عليها. فإن سير

حوادثها بيِّن التكلف، من هجاء طرفة لعمرو بن هند، إلى هجائه عبد عمرو، إلى إشفاق ملك العراق من قتله في قاعدة ملكه خوفًا من المتلمس، إلى إرساله ليقتل في البحرين وهي مسقط رأس الشاعر وبلاد قومه، إلى صحيفة المتلمس ورفض طرفة أن يفض صحيفته، إلى امتناع صاحب البحرين عن قتل الشاعر لأنه من أقربائه، وحبسه اياه، ثم انتظاره أن يرسل عمرو بن هند عاملًا جديدًا ليقتله ويقتل طرفة معه، إلى مجيء العامل وهو من بني تغلب أعداء البكريين، إلى قعود بني بكر عن إنقاذ شاعرهم في عقر دارهم ... إلى غير ذلك مما يصعب الاطمئنان إليه.

فلقد كان بوسع عمرو بن هند أن يفتك بالشاعرين معًا في العراق، بدلًا من أن يرسلهما إلى البحرين، ولقد كان ينبغي له أن يخشى هجاء المتلمس أخيرًا كما خشيه أولًا بعد أن نجا هذا من الشَّرَك الذي نُصب له، ولقد كان بوسع صاحب البحرين أن ينجو وطرفة دون أن ينتظر قدوم العامل الجديد ليقتلهما معًا.

وزعم الرواة أن نسيبه صاحب البحرين بعث إليه في سجنه جارية اسمها خولة فردَّها، وقال في ذلك أبياتًا مطلعها:

ألا اعتزليني اليومَ يا خَولَ أو غُضِّي فقد نَزلتْ حدَباءُ مُحكمةُ العضِّ[٣٤]

ومنها البيت المشهور يخاطب به عمرو بن هند:

أبا مُنذر أفنَيتَ فاستَبقِ بَعضَنا حنَانَيكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

ولا يخفى ما في إرسال الجارية إلى السجن من التكلف. وقد جعل الرواة اسمها خولة، وهو اسم المرأة التي يشبب بها طرفة في معلقته، فكأنهم أرادو أن يؤنسوه بذكر من يهوى قبل موته، وفي ذلك ما فيه من التفكيه والإغراب. وليس في البيت الذي يخاطب به عمرو بن هند ما يدل على حقيقه الحال؛ لأن ملك العراق لم يُفنِ قبيلة الشاعر حتى يصح قول طرفة:

أبا مُنذر أفنيتَ فاستبقِ بعضنا ... ...

على أننا وإن كنا نشكُّ في رواية قتله فلا ريبَ عندنا بأن الشاعر مات صغير السن، ولَّما يبلغ الثلاثين من عمره، فعُرف بالغلام القتيل، وبابن العشرين، يؤيد ذلك رثاء أخته الخِرنق له إذ تقول:

عَددنا له سِتًّا وعشرينَ حِجَّةً فلمَّا توفَّاها استوى سيِّدًا ضخما[٣٥]
فُجِعنا به لمَّا رَجونا إيابَهُ على خيرِ حال لا وليدًا ولا قحما[٣٦]

وقد يكون عمرو بن هند قتله من أجل الهجاء، فقد أشار إلى ذلك الفرزدق بقوله: وأخو بني قيس وهنَّ قتلنه، أي القصائد.

(٢-٣) آثاره

لطرفة ديوان جُمعت فيه أشعار أشهرها المعلَّقة، ثم «رائية» مطلعها:

أصَحوتَ اليومَ أمْ شاقتْكَ هِرّ ومِن الحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ[٣٧]

ولم يذكر له ابن سلَّام غير هاتين القصيدتين، وروى مطلعهما، ولكنه عرف له قصائد أخرى لم يدل عليها.

وأضيفت إليه قصيدة «ميمية» ذكر الأصمعيُّ أنها منحولة، ومطلعها:

سائِلوا عنَّا الذي يعرِفُنا بخَزازى يومَ تَحلاقِ اللَّمَمْ[٣٨]

ونحن يهمنا من شعر طرفة معلَّقته؛ ففيها تظهر ميزته، وعليها المعوَّل في درس حياته، وأخلاقه، وآرائه في الحياة والموت، وإن كانت رائيته لا تخلو من الجمال، ولا تعدوها الفائدة في استطلاع شخصية الشاعر.

(٢-٤) ميزته — المعلقة

معلقة طرفة هي الثانية في المعلقات، وهي كسائر الشعر الجاهلي متعددة الأغراض والمرامي، يستهلها بوصف أطلال خولة وحدوجها، ثم ينتقل إلى وصف الناقة، فوصف معيشته وكرمه فمعاتبة ابن عمِّه مالك، فالافتخار بنفسه، فذكر آرائه في الموت والحياة،

إلى غير ذلك من الأغراض التي لا يتألف منها وحدة في الموضوع. وقد شُرحت هذه المعلقة مرارًا وترجمت إلى اللغات الأجنبية.

(٢-٥) الغزل

لِـخَـوْلَـةَ أطـلالٌ بِـبُـرقـةِ ثَـهـمَـدِ تَلوح كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ[٣٩]
وقوفًا بها صَحْبي عليَّ مَطِيَّهُم يقولون لا تَهلِكْ أسًى وتَجَلَّدِ[٤٠]

وهنا ينتقل الشاعر إلى ذكر حدوج المالكية فيشبهها بالسفن، ثم يأخذ في وصف تلك السفن حتى إذا انتهى عاد إلى وصف من يهوى. وهذه خاصة في الشاعر الجاهلي تجعله لا يترك الموصوف حتى يصوِّره من جميع جهاته.

ولهذه الأبيات قيمة تاريخية تفيدنا ما كان في البحرين من ملاحة وصناعة سفن. وليس أولى من طرفة بوصف السفن والملاحين وهو ربيب السواحل البحرية، ثم يعود إلى من يهوى فلا يتعدى في وصفه عنقها وثغرها ووجهها.

(٢-٦) وصف الناقة

وينتقل فجأة إلى ناقته التي ينفي بها الهم عند حضوره:

وإني لأُمضي الهمَّ عند احتضارِهِ بعَوجاءَ مِرقالٍ تروح وتَغتدي[٤١]

فيمعن في وصفها متناولًا أعضاءها عضوًا عضوًا، مشبهًا عظامها بألواح التابوت، وعَدْوها بعدو النعامة، وشعر ذنبها في بياضه بجناحي نسر أبيض، وأخلافها بقربة بالية لانقطاع لبنها، وفخذيها ببابي قصر منيف أملس، وأضلاعها المتصلة بفقارها بالقسيِّ، وإبطيها في السعة ببيتين من بيوت بقر الوحش. وشبهها وشبه مرفقيها وبعدهما عن جنبيها بسقَّاء يحمل في يديه دلوين، وعلوَّها بقنطرة رجل رومي، وشبَّه جنبيها بسقف أُسند بعضه إلى بعض، وآثار النِّسْع[٤٢] في ظهرها بنُقَر في الصخرة الملساء. ثم شبَّه هذه الآثار في تلاقيها وتباعدها ببنائق بيض في قميص مقدود. وشبَّه عنقها في ارتفاعه وانتصابه بسُكَّان[٤٣] سفينة جارية في نهر دجلة، وجمجمتها بالسندان، وطرف

الجمجمة بالمبرد في دقته وصلابته، وخدها بقرطاس الرجل الشآمي في انملاسه، ومشفرها بالجلد اليماني في لينه، وعينيها في صفائهما وبريقهما بالمرآة وبالماء في نُقرة صخر، وحَجاجيَها[٤٤] وغئور عينيها فيهما بكهفين أي مغارتين. ثم شبَّه عينيها في حسنهما بعيني بقرة وحشية مذعورة لها ولدٌ، وأذنيها في تيقظهما بأذني ثور وحشي منفرد كثير الحذر، وقلبها في صلابته بمِرداة — أي صخرة — تكسر بها الصخور، وشبه ما يحيط به من الأضلاع بحجارة عريضة محكمة.

ولا يخفى ما في هذا القسم من الفوائد التاريخية عن العصر الجاهلي.

(٢-٧) حياته وشاعريته

وبعد أن يُتِمَّ وصف ناقته وتصويرها يفرغ إلى نفسه فيصف معيشته في السلم والحرب، فإذا هو يحبُّ اللهو والعبث كما يحب الحرب، وإغاثة الملهوف، وإذا هو مبذر يكره جمع المال؛ لأن الموت لا يفرق بين الكريم والبخيل، والكريم خير من البخيل، وفي هذا القسم يطلعنا على آرائه في الحياة والموت، وعلى اضطهاد عشيرته له، وعلى غير ذلك مما يتعلق بحياته. وهو أهمُّ أقسام المعلقة؛ لأن به تظهر خصائص الشاعر تمام الظهور. فلا خولة طرفة ولا ناقته تجذبه إلينا أو تجذبنا إليه، فليس في نسيبه ما يغري به ويستخف القلوب، وليس في وصف «عوجائه المرقال» ما يجمع روحنا بروحه ويربط دنيانا بدنياه، وإن كان أدقَّ واصف لها بشهادة المتقدمين والمتأخرين. وإنما طرفة بنفسه دون غيره، بلهوه ومرحه، بفخره واعتداده، بتشكيه وتظلمه، يحملنا إليه أو يحمل ذاته إلينا، فنحسُّ بإحساسه، نأسى لألمه، ونبتهج لحماسته، ونضحك لسروره. فحياته في شعره لها أثر قوي في توجيه هذا الشعر، وضم روحه إلى أرواح قرائه. وإذا لم يكن فيه ما في شعر امرئ القيس من انطلاق النفَس، وعمق التصور، وتلوين الخيال المتحرك، فإن فيه من صدق الشعور، وفطرة النفس، وبساطة التعبير ما يفيض عليه الجمال ويضمن تقريبه إلى القلوب.

والشعور الصادق عامل رئيس للفن، يبعث النشاط في النفس، ويحبو الجمال عنصر الحياة. وكلُّ عمل فني فاته الشعور لا يستحقُّ أن يُعَدَّ من أبناء الحياة، وليست النشوة التي تحدثها حياة الفنِّ إلاَ ائتلافًا موسيقيًّا بين الشعور والخيال والإدراك، تتولى الألفاظ إخراجه في الشعر كما تتولى إخراجه في الموسيقى والرسم، والأوتار والألوان.

وكان طرفة في حياته قطعة موسيقية ائتلفت بها عناصر الحس والخيال والفكر، فانتظمت وحدة كلية على غير تكافؤ، لما للشعور من سيادة وسلطان، وجاء شعره صورة عن حياته في اتحاد هذه القوى النفسية، وسيطرة الإحساس عليها جميعًا. وما هذه الحماسة التي ترافق شعره، في الدفاع عن نفسه وعن آرائه، إلا وليدة إحساسه القوي لكلِّ ما يتصوره ويفكر فيه. يندفع بإيمان ثابت، وعناد متصلب، وإن كان على خطإٍ في ما يرمي إليه.

وطرفة ربيب البحرين شهد من الحضارة والعمران ما لا يشهده ساكن الخيام في بوادي نجد والحجاز، ونشأ يتيمًا لا يد فوقه تقوم على تأديبه، إلا يد أمِّه ولم تكن قاسية عليه، ووجد في حوزته مالًا وافرًا، فراح يختلف إلى الحوانيت وهو في العشرين أو دون العشرين، يصحب الندمان، ويشرب الخمر، ويعاشر القيان، حتى أنفق ما لديه وأفلس، فخلعته عشيرته، وأوسعته لومًا وإهانة، وكان أقرب الناس إليه — أخوه وابن عمه — أشدَّهم وقيعة به. فتألمت نفسه الفتيَّة، وأبت أن تصبر على الضيم في أنفتها، وشدة إحساسها، فتفجرت منها ينابيع الشعر ثائرة على الظلم، ساخطة على الأقرباء، مستهينة بالموت والحياة. وليس للشاعر غير فنِّه يسكن به آلامه، ويبث شكايته، ويرد عن نفسه، فاندفع طرفة يسفِّه أقوال لائميه، ويبدي لهم صلاح أعماله، وفساد آرائهم، في شيء غير قليل من القحة والعناد والزراية والتحدي.، وبنى أحكامه على الخلود والفناء، فما دام الإنسان مائتًا على كل حال، ولا خلود في هذه الدنيا لحيٍّ؛ فلماذا لا يبادر الفتى منيته بماله وملذاته؟ تلك الملذات التي يختصرها في ثلاثة أشياء: الحرب والخمر والنساء.

فهذا الدفاع الحار بحجج يسيطر فيها الشعور على الفكر، هو الذي يحبب شعر طرفة إلينا، وما شعره إلا صورة لحياته الهائجة المضطربة، تلك الحياة التي ينكرها عليه أهلوه ويضطهدونه من أجلها، ويراها، مع ما لقي بسببها من إفلاس وطرد وشقاء، مثلًا أعلى لا يسمو إليه إلا كلُّ فتى كريم، يجمع الشرف والنجدة واللهو والغزل.

وقوة الشعور عنده تكاد تجعلنا لا نشعر بسذاجة الآراء التي يبنيها على الموت والحياة؛ لأنه لم يقف فيها موقف الخطيب الواعظ، أو الرجل الحكيم المصلح؛ بل جاء بها مدافعًا عن نفسه، يحسها كأنها بعض روحه، بما فيها من تدافع الحزن والألم وعزة النفس والأنفة، وحباها بكلِّ ما في الشباب من نشاط وحياة، وزادتها جمالًا بساطة التعبير عن خوالج النفس دون أي تكلف، وفطرة صريحة يحلو بها الشعر الجاهلي، ويستقل بنفسه عن الأدب العربي. فطرفة لا يجنح في تعابيره إلى الصيغ المجازية البعيدة،

ولا إلى الصور الخيالية العميقة، وإنما يتدفق شعوره بالألفاظ التي تبعثها النفس على سجيتها، سهلة حينًا، خشنة أحيانًا، فيها من الفن ما يكفي لنقل الحالة التي يحسها الشاعر ويتصورها، وإن يكن هذا الفن يحتاج إلى تهذيب بعض الأحيان، ولا سيما المَواطن التي لا يتدفق منها الشعور.

والفطرة في شعره تتمثل أصدق تمثيل بصراحته وسذاجة عقائده، وتحمسه الشديد لها، تلك الصراحة التي جعلته يتحدث عن نفسه في خيرها وشرِّها. فيطلعنا على حياته اللاَّهية وشربه وتبذيره، وحياته البائسة، وقد أفلس وطردته العشيرة، وتُرك منفردًا كالبعير الجَرِب. ثمَّ هذا التشكِّي البريء لجور ابن عمه وإعراضه، فابن عمه يراه جانيًا ويقسو عليه، وهو لا يرى على نفسه ذنبًا يستحقُّ هذه القسوة، وإن يكن أهمل رعاية الإبل حتى سُرقت منه، فقد سعى جهده في طلبها وإرجاعها، فأي ذنب بعدها يحسب عليه؟ هذه العقلية الغريبة، بما فيها من اقتناع بالبراءة، وإيمان بالنفس والآراء، وتخطئة لكلِّ من يخالف عقائدها، هي مثال صادق لفطرة طرفة، وغرور شبابه، وعناده، وكبريائه. فشخصية طرفة القوية، هي التي ترفع قيمة شعره وتُدنيه إلى القراء. يغلي في عروقه دم الشباب، فيفيض حماسة وشعورًا، وإيمانًا. ولا جرم أن سنه ترفد هذا الشعر، فتكسب صاحبه عطفًا على العطف الذي يستحقه، فهو شعر الغلام القتيل، وابن العشرين.

(٢-٨) هجوه وسخريته

أجمع الرواة على أن طرفة كان حديد اللسان جريء الهجاء، ويزعمون أن استخفافه بالناس قرَّب أجله. غير أن هذه الخاصة لا نجدها في المعلقة على تعدد أغراضها، فينبغي لنا أن نلتمسها في غير المعلقة. وقد عرفت أن ما وصل إلينا من شعر طرفة، قليل جدًّا وأكثره لا يعوَّل عليه. ولكننا نأخذ شواهد، على هذه الميزة في الشاعر. انتقاده لشعر خاله المتلمس، وكان طرفة غلامًا يلعب مع أترابه فسمع خاله يقول:

وقد أتناسَى الهمَّ عند احتِضَارِهِ بِناجٍ عليه الصَّيعريَّةُ مُكْدَمِ[٤٥]

والصيعرية سمة للنوق، فقال طرفة: «استنوق الجمل.» فأرسلها مثلًا، وضحك القوم؛ فغضب المتلمس ونظر إلى لسان طرفة فقال: «ويل لهذا من هذا.» يعني رأسه من لسانه، ونأخذ أيضًا هجوه لعمرو بن هند وأخيه قابوس:

فليتَ لنا مكانَ المَلْكِ عَمرٍو رَغوثًا حَولَ قُبَّتِنَا تَخُورُ
لَعمرُكَ إنَّ قابُوسَ بنَ هندٍ لَيَخلِطُ مُلكَهُ نَوْكٌ كثيرُ

وهجوه لصهره عبد عمرو:

ولا خيرَ فيه غيرَ أنَّ له غنًى وأنَّ له كشحًا إذا قام أهضما

فمن هذه الأمثلة الصغيرة يمكننا أن نتبين خاصة الهجاء في طرفة وما فيها من استخفاف وهزء، ولعلَّ الاستخفاف والهزء من أبرز خصائص هذا الشاعر، فهما ظاهران في لهوه وعبثه، ظاهران في زهده في الحياة والمال، ظاهران في هجوه وانتقاده.

(٢-٩) صحة شعره

قال ابن سلَّام: «ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلَّة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعَبيد، والذي صحَّ لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان ما يُروى من الغثاء[٤٦] لهما فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة. ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر، وكانا أقدم الفحول فلعلَّ ذلك لذلك. فلما قلَّ كلامهما حُمل عليهما حملٌ كثير.» ا.هـ.

فهو يرى أن شعرهما ناله من الضياع أكثر من شعر غيرهما؛ لأنهما أقدم الفحول وأن الرواة نحلوهما شيئًا كثيرًا لما قلَّ كلامهما، ولكنه يعترف بصحة معلقة طرفة وصحة رائيته «أصحوتَ اليومَ ...» وبعض قصائد حِسان له لم يشر إليها.

ونحن في درسنا شعر طرفة اعتمدنا على المعلقة أكثر من غيرها، وهي ثابتة له لم يشكَّ أحد في صحتها، وإذا كان الشاعر قد شذَّ عن شعراء ربيعة في متانته وشدة أسره، فليس ذلك بعجيب ولكلِّ قاعدة شذوذ. وإذا نظرنا إلى حياة طرفة وما رافقها من ضيم وشظف عيش، بعد أن طرده أهله فهام على وجهه يأوي إلى المغاور والجبال، ويشنُّ

الغارات على الأحياء، لم نعجب لشدة شعره وغرابة ألفاظه. بيد أن هذا الإغراب يكاد يقتصر على وصف الناقة دون سائر أقسام المعلقة.

(٢-١٠) منزلته

وضعه ابن سلَّام في الطبقة الرابعة لقلَّة شعره بأيدي الرواة، ولكنه قال فيه: إنه أشعر الناس واحدة وهي قوله: «لخولة أطلال ...» وقال ابن قُتيبة: هو أجود الشعراء طويلة. وقال ابن رشيق: طرفة أفضل الناس واحدة عند العلماء وهي المعلقة. وقال أبو عبيدة: مرَّ لبيد بمجلس في الكوفة وهو يتوكأ على عصًا، فلحقه فتى من أهل المجلس وسأله: مَن أشعر العرب؟ فقال: الملك الضَّليل، يعني امرأ القيس. فسأله: ثم من؟ فقال: الغلام القتيل، يعني طرفة. فسأله: ثم من؟ فقال: الشيخ أبو عقيل، يعني نفسه. ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإنَّه يستدلُّ منها ومما تقدمها من الأقوال، أن طرفة فُضِّل بمعلقته على سائر الشعراء. وهذا التفضيل يعود إلى ما فيها من تصوير صادق لحياته البدوية، وما يتخلله من الآراء والحكم، والفوائد التاريخية، إلى ما هنالك من دقة الوصف، وبراعة التشبيه، وقوة التعبير. وحسب صاحبها فضلًا أن يكون غلامًا في العشرين.

(٣) زهير (توفي في السنوات الأولى للهجرة)

(٣-١) حياته

لم يَسلم زهير بن أبي سلمى من الخلاف في نسبه، شأنه شأن غيره من شعراء الجاهلية كالنابغة والحطيئة والشنفرى وسواهم. فقد جعله ابن قُتيبة في غطفان، مع أن ابن الأعرابي وابن الكلبي وأبا الفرج الأصفهاني وغيرهم يردونه إلى مُزينة ويقولون إنَّه نزل أرض غطفان وتزوج منهم، وأقام فيهم. وحجة ابن قتيبة في دفع نسبه عن مزينة أنه ليس له أو لأبنائه شعر ينتمون به إليها إلا بيت كعب بن زهير، وهو قوله:

هم الأصلُ مني حيثُ كنت وإنني من المُزَنِيِّينَ المُصفَّين بالكَرَمْ

وكان مُزرَّد بن ضِرار الغطفاني قد دفع نسب كعب في غطفان، ورده إلى مزينة، فلم ينكر كعب عليه زعمه بل أثبت بهذا الشعر أنه منها. ويشرح ابن سلَّام ذلك بقوله:

«وقد كانت العرب تفعل ذلك، لا يُعزى الرجل إلى قبيلة غير التي هو منها إلا قال: أنا من الذين عنيتَ.» فيُستدل من كلامه أنه يشكُّ في مزنيَّة كعب. ويقول أيضًا: «وكان أبو سلمى وأهل بيته في بني عبد الله بن غطفان، فبهم يُعرفون، وإليهم يُنْسبون.» ثم يقول: «ولقد أخبرني بعضُ أهل العلم من غطفان أنهم من بني عبد الله بن غطفان، وأن اعتزاءه إلى مزينة كقول هؤلاء، وأما العامة فهو عندهم مُزنيٌّ.»

فانتماء كعب إلى مُزينة، بحسب هذه الرواية، كانتماء العرب الذين يُنسبون إلى قبائل غريبة، فيقولون: «أنا من الذين عنيتَ.» ولكن ابن سلام، مع ما ألقى من الشك على مزنيَّة زهير، لم يسعه إلا أن يجاري العامة عند ذكر نسبه، فجعله من المزنيين، ونرى أن رواية الغطفاني لا تسلم من الجرح، فليس من الغريب أن تدَّعي غطفان شاعرًا مشهورًا كزهير عاش مجاورًا لها يمدح ساداتها ويدافع عنها أصدق دفاع. قال ابن عبد البرِّ في الاستيعاب: «وكانت محلتهم في بلاد غطفان، فيظن الناس أنه من غطفان، أغني زهيرًا، وهو غلط.»

ولم يصل إلينا شعر كثير عن كعب، ولا عن غيره من ولد زهير وحفدائه لنجد في أقوالهم ما يدل على نسبهم سوى هذا البيت لكعب، وبيت آخر لأخيه بُجير يقول فيه: «وأَلْفٌ من بني عثمان واف.» والمراد عثمان بن مزينة. رواه ابن سلام وقال: «وقد يجوز أن يكون يعني غير قومه من المزنيين.» ولعلَّ اختلاطهم بغطفان في السكنى والزواج هو الذي صرفهم عن التفاخر بمزينة كما صرف والدهم زهيرًا من قبل، فإن أشعاره — على كثرتها بالإضافة إلى أشعارهم — لا تهدي راويتها إلى أصله ونسبه، بل نجدها تشتمل على مناقب مُرَّة ومآثر غطفان، يمدح ساداتهم وفرسانهم، ويرد على أعدائهم منافحًا عنهم. وكان والده أبو سلمى ربيعة هَجَرَ قبيلته واجدًا عليها، وأقام في غطفان متزوجًا إليها، فنشأ الابن فيهم تعطفه الخئولة من ذبيان، ولا تهزُّه العمومة من مزينة، فعاش بينهم وأصهر إليهم وخص شعره بهم، حتى شك ابن سلام في مزنيته، وجزم ابن قتيبة، فجعله من غطفان.

ولم يجتمع لشاعر في الجاهلية حظٌّ من الشعر كما اجتمع لزهير. فقد كان أبوه ربيعة شاعرًا، وخاله بَشامة بن الغدير الغطفاني شاعرًا، وأختاه سُلمى والخنساء[٤٧] شاعرتين، وابناه كعب وبُجير شاعرين، وحفيده عُقبة بن كعب الملقب بالمضرَّب شاعرًا، وابن حفيده العَوَّام بن عقبة شاعرًا. وكان زوج أمِّه أَوْس بن حَجَر شاعرًا مشهورًا فروى له زهير ونظم الشعر ففاقه، وأخمل ذكره.

وأقام زهير في بني مرَّة مكرَّمًا مسموع الكلمة. وكثر ماله وتزوج امرأة تكنى أم أوفى، ثم جمع بينها وبين ضرَّة يقال لها كبشة بنت عمَّار من غطفان، فولدت له كعبًا وبُجَيرًا. فغارت أم أوفى منها لأن أولادها ماتوا، وأخذت تسيء إلى زهير حتى طلقها. ثم ندم وأخذ يذكرها في شعره كلما خطرت له في بال.

وعاش زهير عمرًا طويلًا ربما بلغ به التسعين أو نيَّف عليها، وتدلُّنا المعلقة على أنه كان في الثمانين يوم نظمها لقوله فيها:

سئمت تكاليفَ الحياةِ ومَن يعِش ثمانينَ حولًا لا أبا لكَ يَسأمِ

وهذه القصيدة أنشئت بعد أن وضعت حرب داحس والغبراء أوزارها، أي في أوائل القرن السابع، فتكون ولادة الشاعر في العقد الثالث من القرن السادس للميلاد.

وروى صاحب الأغاني أن النبي نظر إلى زهير وله مائة سنة، فقال: «اللهمَّ، أعذني من شيطانه!» فما لاك بيتًا حتى مات. فإذا صحت هذه الرواية فيكون زهير قد أدرك سنة ٦٣٠، أي التاسعة للهجرة، ولكن يرجح أنه توفي قبل إسلام ولديه؛ لأن الرواة لم يذكروه معهما، ولا يجوز أن يُنسى مثله لو كان حيًّا. وقد أسلم ابنه بجير في أواخر السنة السابعة للهجرة، وأسلم كعب في السنة التاسعة. وذكر البغدادي في خزانة الأدب أنه مات قبل البعث بسنة، أي نحو سنة ٦١١م. فإذا صحَّت روايته — ولا ندري مستندها — فيكون زهير قد جاوز الثمانين، وتكون رواية الأغاني باطلة، ومهما يكن من شيء، فإن الشاعر كان من المعمرين، ومات على جاهليته، سواءٌ أدرك البعث أم لم يدركه.

(٣-٢) شعره

انتهى إلينا طائفة صالحة من شعره، وفيها معلقته المشهورة التي قالها بعد حرب داحس والغبراء، وليس لدينا شعر قاله في أثناء هذه الحرب، محرضًا بني ذبيان أو راثيًا الفرسان الذين قُتلوا فيها، شأن شعراء القبائل في مثل هذه الحال، وقد مرَّ به أعظم حادث روِّعت له القبيلة، فكانت مجزورة أهلية فجعت بني ذبيان بخيرة رجالها. فلماذا سكت زهير عن رثائهم وتحريض القبيلة على الأخذ بثأرهم؟ ألعلَّ هذا الشعر ضاع فلم يصل إلينا؟ أم لعله لم ينظم شيئًا فيهم؛ لأنه كان كارهًا هذه الحرب التي اشتعلت نارها لسبب تافه، وهو الشاعر الحكيم الذي يسعى لخير القبيلة، ولا يرى لها أن تتورط في

حرب مشئومة تفانت فيها بنو غطفان: «ودقوا بينهم مَنشِمِ.» على حدِّ تعبيره. فلم يشأ أن يؤرث جمرة الأحقاد بندبه وتحضيضه، بل كان يرجو أن يقوم من عقلائهم من يسعى إلى الصلح، حتى تجند له هرِم بن سنان والحارث بن عوف المريَّان، فمدحهما وشكر صنعهما، وأشاد بذكرهما. وله في هرم عدة قصائد خلَّدت ذكره وذكر أبيه سنان.

ولا يُذكر زهير في شعراء الجاهلية إلا ذُكرت معه الرويَّة والرزانة والحكمة، وبدا لنا منه شاعر متعاقل لا تنطوي حياته وطباعه على شذوذ غير مألوف في نظام الاجتماع. وجاءت أقوال المتقدمين فيه وصفًا لما يبدو من أخلاقه في شعره، وتفضيلًا لهذا الشعر بهذه الأخلاق. فقد نسبوا إليه الحوليات ليظهروا رويَّته وأناته في تنقيح شعره، فقالوا إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر، ويهذبها في أربعة، ويعرضها على أخصائه في أربعة. وقالوا فيه: هو أشعرهم لأنه لا يعاظل في الكلام، ويريدون بذلك تنزيل ألفاظه على ما يقتضيه قانون الشعر عندهم، أي ليس فيه تداخل ولا تضمين يجعل القافية متعلقة بما بعدها، وسموه قاضي الشعراء، كما يقول ابن رشيق، من أجل هذا البيت:

وإنَّ الحقَّ مَقطعهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ

وقدموه على غيره لأنه صاحب مَن ومَن ومَن، وهي أبياته المشهورة في الحكم. فمنزلة شعره تستند عندهم إلى رجحان عقله وحبه للخير والسلام، لا إلى جوهر الشعر نفسه.

وقد كان زهير — كما عرفوه — قاضيًا يصلح بين المتخاصمين، وحكيمًا ينصح الناس ويرشدهم، ويدعوهم إلى العمل الصالح. وفي شعره أمثلة كثيرة تدلُّ على عنايته بخير مجتمعه القبلي وتقويم أخلاقه. وجميل بالشاعر أن يكون له هدف إصلاحي يتجه إليه، وإن كان الفن يستوحي الحياة على إطلاقها، ويجد كل ناحية صالحة لأن تكون له مادة وصورة. فالشاعر عضو في مرافق الجماعة الإنسانية له رسالة سامية يبلِّغها بجمال فنه وما فيه من بهجة للنفوس وإرهاف للعواطف، ولكن من الخير أن يجتمع إلى جمال الفنِّ جمال الغاية فيستطيع الشاعر أن يضيف إلى رسالته الأدبية رسالة الإصلاح. وهذا قلما تأتَّى لشاعر يعتمد أحكام العقل والمنطق، فينصرف إلى سنِّ القوانين الخلقية وضرب الأمثال، فتغلب عليه صفة المعلم الاجتماعي، كما غلبت على زهير؛ لأن طريق الشعر في تطهير الأخلاق غير طريق الوعظ والخطابة. على أن الشاعر يمكنه أن يؤدي رسالته الإصلاحية بأن يكون إنسانيًّا في شعره فيتصور الخير والجمال دُمًى في خياله، ويحسهما إحساسًا بليغًا في أعماق نفسه، حتى إذا أصبحا جزءًا من حياته، أو

ذاتًا من ذاته، أخرج عنهما صورًا وأنغامًا متعددة الألوان، مؤتلفة الأجزاء، تتحرك فيها عناصر الحياة بما نفحها الشاعر من إحساسه ونفسه، فيتراءى الخير في جماله، والشر في قباحته، وترضى الأخلاق ولا يغضب الفن.

وهذا لا يعني أننا نحاول النَّيْل من لغة زهير وبلاغته، فهو كسائر الجاهليين، مستطيل على الألفاظ والتراكيب، وتمتاز لغته بشدة أسرها، ودقة إحكامها، خاصة عُرف بها شعراء مُضر لإعراقهم في البداوة، وبُعدهم عن الأمصار، ولكن لغته، بروحها واتجاهها وفنها، لغة خطابية منطقية تصلح للشعر الاجتماعي الذي يتصل بالعقل أكثر منه بالخيال والعاطفة، وفيها اعتماد ملحاح على المادة لإظهار الحقائق واضحة ملموسة، على منطق راجح وحب إقناع. وحسبنا أن ننظر إلى عنايته بتبيان مغبة الحرب في صور محسوسة بارزة الخطوط، وإلى مجادلاته ومواعظه وأمثاله بغية الإقناع، ثم إلى فحصه عن مادة اللون وصورته:

عَلوَنَ بأنماطٍ عِتاقٍ وكِلَّةٍ وِرادٍ حواشِيها مُشاكِهةِ الدمِ[٤٨]

لنعلم مبلغ تعلقه بالحقائق على ما يرتضيه المنطق ويقبله العقل. حتى إن المتقدمين — في تفضيلهم إياه — كانوا من أنصار العقل في الشعر فمدحوه بقولهم: «إنه كان واضح الغرض لا يقول إلا ما يُعرف.»

فمادية زهير، واعتماده على ما يعرف من الحقائق جعلا شعره واضح الغرض. ويكفي القارئ أن يفهم ألفاظه الغريبة ليستولي على أفكاره ومقاصده، لا أمثاله وآرائه وحدها، بل الأشياء التي يتناولها وصفًا وتصويرًا، فإنه لتدقيقه في جلائها، جعلها ناتئة الملمس، خالصة من الغموض، على ما فيها من جمال الصورة وبلاغة التعبير:

بكَرنَ بكُورًا واستَحرْنَ بسُحرةٍ فَهنَّ ووادي الرسِّ كاليَد في الفمِ

فزهير في حِكَمه وأمثاله وجدله ومواعظه، شاعر حكيم، وخطيب اجتماعي، وقاضٍ يرشد ويصلح، ومنظوماته — في كثرتها — ليست من الشعر الخالص، وإن كان لا يعدوها جمال العبارة وحسن التصوير. وربما وجدت فيها برودة وجفافًا يتمثل بهما صاحبها الوقور الهادئ الرصين. حتى إن غزله، في هدوئه وصلابته. لا يثير عاطفة ولا يحرك قلبًا. يصرف عنايته إلى ذكر الديار الخالية، ووصف فراق الأحبة، ومرافقة

الظعائن في انتقالها من مكان إلى آخر. وقلما وصف الحبيبة وأظهر محاسنها. فغزله — في جملته — يدل على أن صاحبه قد تقدمت به السن. قاله في حرب داحس والغبراء أو بعدها، فهو ذكريات شيخ يحنُّ إلى امرأته أمِّ أوفى التي طلقها، أو يأسف لأن العذارى أصبحت تناديه: يا عمي! بدلًا من أن تناديه: يا أخي!

وقال العذارى: إنما أنت عمُّنا! وكان الشبابُ كالخليطِ تُزايلُهْ

ويمكن القول إن أكثر أغراض الشاعر ومقاصده تنماز بالرصانة والهدوء والتعاقل، وتنزع إلى الجدل وتوخِّي الحقائق المادية المجسَّمة.

(٣-٣) شعره السياسي — مدح السادات

إذا كان لزهير، في مختلف أغراضه، أشياء حسان، فخير شعره ما قاله في مدح سادات بني ذبيان، والدفاع عن القبيلة وإرشادها، وإسداء الحكم الاجتماعية في حسن السياسة ومكارم الأخلاق. فمدائحه خير مثال لأسلوب المدح الجاهلي، تظهر فيه مناقب الأشراف والفرسان وفضائلهم، على ما فيها من عنجهية ومكاثرة واعتداد. فإنَّ زهيرًا لم يتصل بملوك الشام والعراق ليشتمل شعره على صفات أصحاب القصور، ولا وفد على القبائل الغريبة يمدحها، ليخرج بشعره عن الصفة القومية التي ينتمي إليها، بل مكث في بني ذبيان يخصهم بمدائحه وآرائه ونصائحه، ويقارع أعداءهم شأن أمثاله من الشعراء القبليين الذين يوجهون أشعارهم شطر مجتمعهم لصلاحه ومنفعته، فيبذلون له ما في وسعهم، أسوة بغيرهم من أبنائه العاملين. ونعرف من الأشخاص الذين مدحهم من بني مرَّة: سنان بن أبي حارثة، وولده هَرِمًا، والحارث بن عوف؛ ومن بني بدر: حصن بن حُذيفة، ونستثني مدحه للحارث بن ورقاء الصيداوي. فإنه ثناء أسداه إليه إثر هجاء بعدما ردَّ عليه عبده يسارًا، وكان قد سباه.

وأكثر مدائحه وأفضلها ما قاله في هرِمِ بن سِنان؛ لأنه كان شديد الحب له، وكان هرم يبرُّه ويجزل له العطاء، وإن تكن مدائحه للآخرين لا يعدوها الجمال، ولا يقلُّ أصحابها عن هرم شرفًا وسؤددًا. فالحارث بن عوف سيد من سادات العرب، وهو الذي سعى في الصلح بين المتحاربين حتى أدركه وحمل عن القوم ديات القتلى، وشاركه فيها هرم بن سنان، فخصهما زهير بمعلقته، ثم بقصيدته اللامية التي يقول فيها:

تداركتُما الأحلافَ قد ثُلَّ عرشُها وذبيانُ قد زلَّتْ بأقدامها النَّعلُ[٤٩]

ما عدا القصائد التي مدح بها هرمًا وحده، والتي مدح بها أباه سنانًا ورثاه، حتى قيل إن هرمًا حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه، ولا يسأله إلا أعطاه، ولا يسلِّم عليه إلا أعطاه عبدًا أو وليدة أو فرسًا. فاستحيا زهير مما كان يقبل منه، فكان إذا رآه في ملأ قال: «انعموا صباحًا غير هرم، وخيركم استثنيت.»

ومن حسنات زهير أنه كان لا يجنح في مدحه إلى الغلو الممقوت، ولا يأتي بسفساف القول، ولذلك قال الأقدمون فيه: «زهير لا يقول إلا ما يعرف، ولا يمدح أحدًا إلا بما هو فيه.» وإذا وقع له شيء من الغلو جعل الشرط له مانعًا مثل قوله في هرم:

لو نال حيٌّ من الدنيا بمنزلةٍ وَسْطَ السماءِ لنالت كفُّهُ الأفُقا

فلو: حرف امتناع لامتناع، أي امتناع نيل الأفق من أجل امتناع الشرط لنيل وسط السماء. قال ابن سلَّام: «من قدَّم زهيرًا احتجَّ بأنه كان أحسنهم شعرًا، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من اللفظ، وأشدَّهم مبالغة.» فلو الشرطية هنا أبعدت زهيرًا عن السخف والكذب وأبقته في حدود صدقه ورصانته، وجنَّبته فضول الكلام الذي يلازم شعراء المدح عادة، وهذا ما أراده الأحنف بن قيس إذ قال إنه ألقى عن المادحين فضول الكلام، واستشهد بقوله:

فما يكُ من خيرٍ أتوهُ فإنما توارثَه آباءُ آبائِهِمْ قبلُ

وأما مبالغته التي ذكرها ابن سلَّام فإنها تجعله يتتبع وصف ممدوحه بجميع الخلال الحميدة من كرم وشجاعة وحلم وطيب محتد وبلاغة في المنطق، إلى ما هنالك من الفضائل والصفات التي يفاخرون بها، ويعدونها من شروط السيادة عندهم. ولا يغفل عن ذكر العاذلة التي تشغل مكانًا في الشعر القديم، تلامس عاطفة الجاهلي بنصحها وتأنيبها له، تلومه على إسرافه بالكرم والحب والشجاعة، ولكنها لا تلقى منه سوى الرد والإعراض.

ويستوقفنا ما نسب إلى هرم من التقوى، حتى إن الله يعصمه من سيِّئ العثرات:

ومن ضريبتِه التّقوَى ويعصِمه من سيِّئ العثراتِ اللهُ والرَّحِمُ[٥٠]

وقلما وجدنا المدح الدِّيني في الشعر الجاهلي؛ لأن التَّقوى لم تكن من الفضائل التي يفاخرون بها ويمدحون بها، فقد كان الدين ضعيفًا في نفوسهم فما يذكرون الله إلا في الحلف لتوكيد كلامهم، ولا يلمحون شطر أصنامهم إلا عرضًا لبداوتهم وترحلهم وبعدهم عن بيوتها. وإذا سمعنا النابغة يمدح الغساسنة بدينهم، ويصف موكبهم يوم الشعانين، فلأنهم كانوا مسيحيين يباهون بديانتهم ويتمسكون بعقائدهم. فهل كان هرم بن سنان مسيحيًّا ليصفه زهير بالتقوى، ويجعل له الكرامة عند الله؟ أم هل كان زهير من أولئك العرب الذين تأثروا بالنصرانية التي تسربت في الصحراء وانتحلتها جماعات من مختلف القبائل، فجعل الدين والتقوى من الصفات التي يحمدها في ممدوحه؟ وليست هذه الظاهرة وحيدة في شعره، فإن له أمثالها في معلقته وغير معلقته تدل على ما للدين من خطر في نفسه، حتى مال بعضهم إلى الشك فيها، وأبَى نسبتها إليه، مع أن هذا لا يدعو إلى العجب بالإضافة إلى تعاقل زهير وحكمته وحسن بصره بالأمور، فغير بعيد أن يصل أشباهه إلى معرفة الله والإيمان بالآخرة والثواب والعقاب عن طريق المسيحية أو اليهودية، وهما غير مجهولتين في جزيرة العرب.[٥١]

فإذا بلغ زهير في تقصِّي الصفات المحمودة فإنه يبرأ من الكذب والغلوِّ المذموم. وكثيرًا ما يمدح الرجل بذكر أعماله فيسردها على طريقته القصصية ويجعلها شواهد ناطقة بحسن خلال ممدوحه. فإنه في مدحه هرم بن سنان والحارث بن عوف، قصَّ خبر سعيهما للصلح، وكيف نجَّما الديات دون أن يشتركا في الحرب، حتى بلغا مأربهما وأصلحا بين المتحاربين. فكان في إخباره عنهما مادحًا لهما بمساعيهما دون جنوح إلى الخيال المفرط، فالحقائق الناصعة هي التي تتكلم وترفع شأن ممدوحيه. وهذا الأسلوب الخبري يجعلك لا تستنكر ما يقول الشاعر في ممدوحه، ولا تعزوه إلى الغلو والإفراط. فمدائح زهير هي خير ما وصل إلينا عن الجاهلية من الإشادة بسادات القبيلة، والعناية بشئونها السياسية وأحوالها الداخلية والخارجية.

(٣-٤) السياسة الخارجية

لم يقتصر شعر زهير على مدح السادات والفرسان، وذكر سياستهم الداخلية في إدارة شئون القبيلة، وفضِّ مشاكلها في أنديتهم، وإطعام فقرائها في السنة الشهباء، وإيقاد نارهم للضيوف الذين ينزلون عليها، ونصرة بعضهم لبعض في المغارم والمغانم؛ بل توفر أيضًا على شئونها الخارجية التي تتناول القبائل القريبة والبعيدة. وقد وقع في زمانه أعظم حادث مرَّ ببني ذبيان، وهو حرب داحس والغبراء، وشهد ما حلَّ بهم من الكوارث الفظيعة. فما كاد يُعقد الصلح ويبتعد شبح الموت، حتى عاد خطر الحرب يهدد القبيلتين الغطفانيتين، بعد مقتل رجل عبسي. فنشط إلى تلافي الأمر قبل استفحاله، فوجه معلقته إلى تحسين السلام وتقبيح الحرب. وقد علم أن من الخير لبني ذبيان ألا تعود إلى القتال بعدما خسرت نخبة فرسانها وسادتها، وهاله أن تعاودها الويلات بعد انقشاع غمائمها المظلمة. فهب يدعو المتحاربين إلى الوفاء بعهد الصلح، مذكرًا إياهم ما لقوا من المصائب في تقاتلهم، مخالفًا رأي من يبغي الحرب أمثال حصين بن ضمضم، مع أنه من أنسبائه، وفارس مشهور في بني مرَّة. ولم يحجم عن إلقاء التبعة عليه وحده في مقتل العبسي، متخذًا أسلوبًا جميلًا، منطقيَّ الاتساق، مزيجًا من الوعظ والقصص، فبلغ غايته الإنسانية في الدعوة إلى السلم والتحذير من الحرب، وبرأ بني ذبيان من تهمة الغدر والخيانة، وباح باسم القاتل دون أن يخذله. فقد شرع في أول الأمر يذكِّر ذبيان والأحلاف اليمين التي أقسموها على إبرام الصلح، وخوَّفهم غضب الله وعقابه إذا كانوا يضمرون الحنث فيها.[٥٢] ولكنه لم يتبسط في تفصيل هذه الفكرة الغيبية. بل انتقل إلى عالم الطبيعة، وهو يعلم أن الصور المحسوسة أبلغ تأثيرًا في نفس البدوي المستغرق في ماديته. فطفق يصف فظاعة الحرب ووخيم مغباتها، فوفق لبلوغ مأربه كلَّ التوفيق، وأتى بصور بارزة تتوالى دراكًا متفقة على تمثيل الحرب وأهوالها ونتائجها وغلاتها، فكان فيها عنيفًا شديدًا على رصانته وهدوئه. وما مثله إلا مثل المرشد الحكيم يترفق في نصحه عند صغار الأمور، ويعنف ويقسو عند كبارها.

وكان يعلم أن بني عبس ساخطون على بني مرَّة لمقتل صاحبهم بعد عقد الصلح، يتهمونهم بالخيانة ويرصدون الشر للسيدين المصلحين، فأظهر براءة القبيلة من هذه الخيانة، وأخبر أن القاتل ابن ضمضم أقدم عليها، ولم يخبر جمهرة قومه، فهو مسئول عنها دون غيره. بيد أنه لم يشأ خذله وإطماع الأعداء فيه، وإنما أراد تبرئة قبيلته من ظنة الحنث والغدر؛ لئلَّا يتسع الخرق فلا يصلح الأمر بعده أبدًا. فما كاد يتهمه حتى

اندفع يذكر شجاعته وجرأته وإقدامه، وأن وراءه ألف فارس يحاربون معه ويشدون أزره.

وتتبع تبرئة بني مرة — ولا سيما السيدين اللذين أصلحا بين المحتربين — فأوردَ أسماء فرسان من بني عبس قُتلوا في معامع السباق، وقال للعبسيين: إن الذين تحملوا الديات من أجل الصلح لم يشاركوا في دماء هؤلاء القتلى، فكيف تتهمونهم الآن، وتأخذونهم بجريرة غيرهم؟ ولم يغفل أن يفهم بني عبس أن سادات غيظ بن مرة عزيزو الجانب لا يدرك الموتور ثأره منهم، وإذا جنى أحدهم جناية، لا يسلمونه ولا يخذلونه، وكأنَّه يشير هنا إلى جناية حصين بن ضمضم:

كِرامٌ فلا ذو الضغنِ يُدرِكُ وِترَهُ ولا الجارِمُ الجاني عليهم بمُسلَمِ

فبلغ، بحسن منطقة، ما أراد من التحذير والتنبيه وتبرئة قومه والدفاع عنهم، فأدى مهمته القبلية خير تأدية، وأنقذ السلم والشرف في وقت معًا.

وكان كلما عرضت له خدمة القبيلة لا ينكص عنها. فإذا صمدت بنو تميم إلى بني غطفان تطلب غزوها، تصدى لها يتهددها ويثبط عزيمتها، بسكون طبعه ورباطة جأشه، دون أن يفور له فائر. فيظهر منعة قومه وكرم خيولهم. ثم ينصح لها أن تبقى في ديارها لئلَّا تُمنى بالذل، أو تنتجع سنان بن أبي حارثة المرِّي والد هرم فتلقى عنده الخير والسماحة:

فقَرِّي في بلادك إنَّ قومًا متى يَدَعوا بلادَهُمُ يهونوا
أو انتجعي سِنانًا حيثُ أمسى فإنَّ الغيث مُنتَجَعٌ مَعينُ

وكذلك كان شأنه مع بني هوازن وبني سُليم عندما أزمعوا الغارة على الغطفانيين، فذكَّرهم القرابة ودعاهم إلى رعايتها وإلى حفظ المودة، ولم ينس أن ينوِّه بشدة بأس قومه، وأنهم إذا آثروا الصلح فعدوُّهم أفقر إليه منهم.

ولم يكن هجاؤه لآل حصن إلا من جملة سياسة القبيلة في الدفاع عن غطفان ومقاومة من يسيء إليهم أو إلى أحد منهم. فإن الذي دفعه إلى هجائهم هو أن رجلًا من بني عبد الله بن غطفان، وهم الذين جاورهم زهير، أتى قومًا من آل حصن، فأكرموه وأحسنوا جواره، وكان مولعًا بالقمار، فنهوه عنه، فأبى إلا المقامرة. فقمروه مرة فردوا

عليه ما ربحوا منه، ثم قُمر أخرى فردوا عليه، ثم قُمر الثالثة فلم يردوا عليه، فترحل عنهم إلى قومه، وزعم أنهم أغاروا عليه، فهجاهم زهير. ثمَّ لما علم الحقيقة ندم، وكان يقول: ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خفت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قومًا ظلمتهم. فقد هجاهم زهير لاعتقاده أن الغطفاني مظلوم أغير عليه، فانبرى يذود عنه ويهدد بني حصن ساخرًا بهم، ولكنه لم يفحش في أعراضهم كما أفحش في بني الصيداء بعدما سبوا عبده يسارًا، بل اقتصر على التهكم الأليم والوعد والوعيد دون أن يغلق باب الصلح. فكان ناصحًا ومرشدًا لهم يجادلهم ليثبت عليهم خطأهم، ويدعوهم إلى إصلاح ما أفسدوا لكي لا يتسع الخرق على الراقع، فيأتيهم منه هجاء لا قِبَل لهم به.

وفي هذه القصيدة تتجلى حكمه زهير ورويَّته واستطالته في الجدل واستنزال الخصم وإلقاء التبعة عليه لا يستطيع أن يتبرأ منها. فقد جاءهم بسبيل الجوار المقدس والذمة والوفاء، فكان أشبه بمحامٍ يدافع عن موكله ليثبت الجرم على خصمه، ويحمله على تأدية الدين إلى المدعي، فيرد على الحجج التي بوسعه أن يتذرع بها، ويدحضها بجدله وبراهينه؛ ويبصِّره مقاطع الحق التي أعجب بها الأقدمون، فلقبوه من أجلها بقاضي الشعراء.

(٣-٥) سياسة الاجتماع

رأينا زهيرًا، في مدائحه وأهاجيه، يمثِّل — أفضل تمثيل — سياسة القبيلة الجاهلية، يشيد بمناقب ساداتها، ويوجع في تهديد أعدائها، يخطب ويعظ، ويحامي ويدافع، فعلينا أن ننظر الآن إليه حكيمًا مرشدًا يريد الخير لقومه، فيبذل من الآراء والأمثال ما تستقيم به أحوالهم الخلقية والاجتماعية، وليس لدينا من شعره قصيدة تجمع الحِكَم أبياتًا يتوالى بعضها إثر بعض غير معلقته، فقد خصَّ القسم الأخير منها بطائفة من الآراء الاجتماعية التي شهرته عند الأقدمين، وفضلوه من أجلها، فقالوا: أشعر الناس صاحب مَن ومَن ومَن. وله أقوال متفرقة في مختلف أشعاره، منها أدلة عقلية مثل قوله:

وهل يُنبتُ الخطِّيَّ إلا وشيجُه وتُغرس إلا في منابِتها النخلُ؟[٥٣]

ومنها أمثال في الحضِّ على العمل الصالح:

تزوَّدْ إلى يومِ المماتِ فإنَّه وإن كرِهتهُ النفسُ آخِرُ موَعِدِ

أو في تحديد مقاطع الحق:

وأنَّ الحقَّ مقطعهُ ثلاثُ: يمين، أو نفار، أو جلاءُ

وأما آراؤه في المعلقة فإنه يتكلم أولًا على الحياة، فإذا هو قد سئمها لطولها بعدما عاش ثمانين حولًا يلقى تكاليفها وأثقالها، وسئمها لأنه يجهل ما يستر عنه الغد، وهي أمنية الإنسان لو استطاعها، وسئمها لأن الموت يخبط على العمياء، فيصيب هذا ويخطئ ذاك. ثم يتناول سياسة الاجتماع، فنرى كل بيت يشتمل على فكرة مستقلة برأسها تتوخى إرشاد الفرد إلى الطريق الذي يحسن به سلوكه لينتفع في دنياه، وهي من الآراء التي يدركها الإنسان بتجارب الحياة، واختبار الناس، والاطلاع على وجوه الخير والشر، وهي — إلى ذلك — من الحقائق البدهية والفكر المشترك يستطاع الإعراب عنها بمختلف التعابير شعرًا ونثرًا دون أن تخسر شيئًا من قيمتها المعنوية، ولكنها إذا انطلقت على ألسنة الشعراء. كان تأثيرها أبلغ في النفوس، وتجعل لصاحبها منزلة بين الحكماء، حتى لنسمع جرجي زيدان — على فضله — يقول فيها: «هذا لا يقلُّ شيئًا عن أحكام أكابر الفلاسفة!»

وإذا قلنا تتوخى إرشاد الفرد فلأنها لا تبحث في خير المجموع جملة، وما يئول إلى إصلاح نظمه ومداواة آفاته العامة، وإنما هي فردية مثل البدوي، ملائمة لحياته الصحراوية، ترشد الأفراد لينتفعوا بها في قبيلتهم — على علاتها — فتشمل المنفعة المجموع الذي يتألف منهم. وهذا ما أراده زهير عندما أخذ يرشد بقوله: مَن ومَن ومَن، داعيًا الإنسان إلى المصانعة ليستفيد في الحياة بحسن سياسته:

ومَن لا يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأ بمنَسمِ

ويدعوه إلى البذل والسخاء ليقي عِرضه ويلقى الحمد. وهذا من الآراء الشائعة في الأدب القديم؛ لتعوُّدهم أن يقروا الضيوف، ويجيروا الخائفين، ويكرموا العفاة، فنطقوا بذلك معبرين عن أحوالهم، وإن اختلفوا في صنع المعروف، فزهير يرفضه في غير أهله، ويجعل عاقبته ذمًّا وندامة، وغيره يقبله ويرى أنه لا يضيع كما قال الحطيئة:

من يفعلِ الخيرَ لا يعدم جوازِيَهُ لا يذهبُ العُرفُ بين اللهِ والنَّاسِ

ولم يكن زهير رسول الضعف والهزيمة وتثبيط العزائم في دعوته إلى السلم وتحذيره من الحرب، وإنما أدبه أدب القوة كغيره من الشعراء الجاهليين، لا يبشر بالاستكانة والخنوع، بل يدفع الحرب ما دام بوسعه أن يدفعها لخير القبيلة أفرادًا وجماعات دون أن يقودهم إلى الذلِّ والصغار. فأما إذا كان لا بد من الحرب، فليس للمرء أن ينكص عنها:

ومَن لم يَذُدْ عن حوضِه بِسلاحِهِ يُهدَّمْ ومَن لا يَظلم الناسَ يُظلَمِ

ولا نعجب أن تصدر عنه حكمة في تزيين الظلم، فإنما هي حياتهم القبلية تفرض عليهم ظلم البعداء والحلم على الأقرباء، فكلهم يفاخر بالجور على الغريب والرفق بابن العم. فزهير لم يزين الظلم إلا لأنه مصروف إلى الغرباء لا إلى القبيلة، فأوصى به في جملة آرائه، وجعله من سياسته الاجتماعية متأثرًا بروح عصره. فليست آراؤه كلها إنسانية تجاري العصور وتتخطى حواجز المكان والزمان، بل فيها ما لا يعيش إلا في الصحراء، في المجتمع القبلي، والعصر الجاهلي.

ويستوقفنا قوله:

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبقَ إلا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ

فالعرب يعتقدون أن القلب مقر العقل، أو هو العقل بعينه كما في كتب اللغة، وكان أرسطو يجعل القلب موضع القوى النفسية، بخلاف جالينوس الطبيب الذي يجعلها في الرأس، وكان ابن سينا يأخذ برأي أستاذه أرسطو.

وقد قال العرب من عهد بعيد: المرء بأصغريه قلبه ولسانه. ولم يذكروا العقل في كلامهم، وإنما ذكروا مكانة القلب والفؤاد. فزهير لم يبتعد عن حكمة الشعب في هذا البيت، كما أنه لم يبتعد عنها حين يقول:

وإنَّ سَفَاه الشيخ لا حِلمَ بعدَهُ وإنَّ الفتى بعد السَّفاهةِ يَحلُمِ

فآراؤه المتفرقة لا تجاوز نطاق التفكير العام، ولكنها تجعل من صاحبها شاعرًا حكيمًا، وخطيبًا مرشدًا. فهو من أولئك الشعراء الجاهليين الذين لهم رسالة اجتماعية يؤدونها لخير قبائلهم وإصلاح أمرها. فقد قام بها أفضل قيام في مدح سادات القبيلة وفرسانها، وإطراء مناقبهم، وفي الدفاع عنها وإرشادها إلى ما فيه نجاحها، فكان الشاعر القبلي، والشاعر الحكيم، وقاضي الشعراء.

(٣-٦) منزلته

هو أحد الثلاثة المقدمين في الجاهلية وهم: امرؤ القيس، والنابغة، وزهير. وقد اختُلف في تقديم أحدهم على صاحبيه، وروى عمر بن عبد الله الليثي: أن عمر بن الخطاب قال: «زهير أشعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل[٥٤] في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، وكان لا يمدح أحدًا إلا بما هو فيه.» وروي أيضًا عن عمر أنه كان يقول: «أشعر الشعراء صاحب مَن ومَن ومَن ...» وقال أبو عبيدة: «أشعر الناس أهل الوَبَر خاصة وهم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة.» وسأل عِكرمة بن جرير أباه: «من أشعر الناس؟» ففضل زهيرًا في الجاهلية. وقال ابن سلَّام: «من قدَّم زهيرًا احتجَّ بأنه كان أحسنهم شعرًا، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ، وأشدهم مبالغة في المدح، وأكثرهم أمثالًا في شعره.»

فيتبين لنا من كلِّ ذلك، أن زهيرًا في مقدمة شعراء الطبقة الأولى، ومنهم من يفضله عليهم جميعًا. وهو كما رأيناه في شعره، متين السبك غير خشن، واضح المعاني، موجز التعبير، متناسق الأفكار، رصين الأسلوب. يؤثر القصص في سرد أفكاره، والتصاوير الحسنة في إبراز موصوفاته. ترافقه الحكمة والرزانة في جميع فنون الشعر وأبوابه. فهو رزين في غزله ووصفه ومدحه، حكيم في هجائه ونصحه وتحذيره. ولا بدع أن يقلَّ سخفه فذاك راجع إلى تروِّيه في النظم وأناته.

وقصارى القول إن زهيرًا شاعر حكيم، ومصور بارع حريص على إتقان صوره وتبليغ ألوانها.

(٤) لبيد (٦٦١م/٤١هـ؟)

(٤-١) حياته

هو أبو عَقيل لبَيد بن ربيعة العامري، وكان أبوه يعرف «بربيعة المُقْتِرين»[٥٥] لجوده وسخائه. فنشأ لبيد كريمًا مثله. وقيل: إنه نذر في الجاهلية أن لا تهبَّ الصَّبا إلا أطعم، وظلَّ على نذره في الإسلام.

وبدت دلائل النجابة على الشاعر منذ حداثة سنه، ومما يُروى عنه وهو غلام أنه وفد في رهط من بني عامر على النُّعمان بن المنذر، فوجدوا عنده الربيع بن زياد العبسي، وكان الربيع ينادم النعمان، فطعن في العامريين وذكر معايبهم لعداء بينهم وبين بني عبس. فجافى النعمان وفد بني عامر وأهمل أمرهم. فخرجوا من عنده غضابًا. فعرض عليهم لبيد أن يهجو الربيع في حضرة النعمان. فاستخفوا به لصغر سنه. فألحَّ عليهم حتى رضوا. فلما أصبحوا دخلوا به على النعمان، والربيع يؤاكله، فقام لبيد يرتجز ويقول:

أكُلَّ يومٍ هامَتي مُقزَّعَهْ ... يا رُبَّ هَيجا هيَ خَيرٌ مِنْ دَعَهْ[٥٦]
يا وَاهِبَ الخَيرِ الكثِيرِ مِن سَعَهْ ... إليكِ جاوزنا بلادًا مُسْبِعَهْ[٥٧]
نحنُ بَنُو أمِّ البَنِينَ الأربَعَهْ ... سُيُوفُ حَقٍّ وجِفَانٌ مُتْرَعَهْ[٥٨]
نحنُ خِيارُ عامِرِ بنِ صَعْصَعَهْ ... الضَّارِبُونَ الهامَ تحتَ الخَيْضَعَهْ[٥٩]
والمُطعِمونَ الجَفْنَةَ المُدَعْدَعَهْ ... مَهْلًا أبَيْتَ اللَّعنَ! لا تأكلْ مَعَهْ![٦٠]

ثم قال بعدها بيتين لا يجمل ذكرهما، فكره النعمان منادمة الربيع وطرده، ثم قضى حوائج بني عامر.

وعُمِّر لَبيد حتى أدرك الإسلام فانتحله دِينًا، ثم انتقل من البادية إلى الكوفة وأقام فيها حتى مات. وكان موته في أول خلافة معاوية بعد أن جاوز المائة؛ وسئم الحياة كما سئم منها زهير، وفي ذلك يقول:

ولقد سَئِمْتُ منَ الحياةِ وطُولِها ... وسؤالِ هذا الناسِ كيف لبيدُ؟

وزعم الرواة أن لبيدًا لم يقل شعرًا في الإسلام إلا بيتًا واحدًا وهو:

الحَمْدُ للهِ إذْ لم يأتِني أجَلي حتى كَساني من الإسلامِ سِرْبالا

وقيل بل هو:

ما عاتَبَ الحُرَّ الكَريمَ كَنَفسِهِ والمرْءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيسُ الصَّالحُ

ورَوَوا أن عمر بن الخطَّاب كتب إلى عامله المُغِيرة بن شُعْبة في الكوفة: «أن استنشد من عندك من شعراء عصرك ما قالوه في الإسلام.» فأرسل إلى لبيد واستنشده، فكتب لبيد «سورة البقرة» في صحيفة ثم أتى بها إلى المغيرة، وقال: «أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر.»

من الغريب أن يطمئن الرواة — ومن أخذ عنهم — إلى سكوت لبيد عن نظم الشعر في الإسلام، على حين أنهم لا يجدون مشقةً في أن يضيفوا إليه أشعارًا قالها بعد إسلامه، فزعموا أنه لما بلغ مائة حجة وعشرًا قال:

أليسَ في مائةٍ قد عاشَها رَجُلٌ وفي تَكامُلِ عَشرٍ بَعْدَها عُمُرُ!

وأنه قال لما بلغ مائة وعشرين:

ولقدْ سَئِمْتُ من الحَياةِ وطُولِهاَ وسُؤالِ هذا النَّاسِ كيف لبيدُ؟
غَلَبَ الرِّجالَ فكانَ غيرَ مُغلَّبٍ دَهْرٌ جَدِيدٌ دائِمٌ مَعْدُودُ
يَومٌ أرى يأتي عليَّ ولَيْلَةٌ وكِلاهُما بعْدَ المَضَاءِ يَعُودُ

وهم يقولون إن لبيدًا عاش تسعين سنة في الجاهلية، وسائر عمره في الإسلام، فهذه الأبيات إذًا قيلت بعد إسلامه. ويروون للبيد قوله مخاطبًا ابنتيه لَمَّا حضرته الوفاة:

تَمَنَّى ابْنَتايَ أنْ يعيشَ أبوهُما وهل أنا إلَّا مِنْ رَبِيعةَ أوْ مُضَرْ؟
إذا حانَ يومًا أن يمُوتَ أبوكُما فلا تَخمُشا وجهًا ولا تَحلِقا شَعَرْ
وقُولا هو المرءُ الذي ليسَ جارُهُ مُضاعًا ولا خانَ الصَّديقَ، ولا غدرْ

إلى الحولِ ثمَّ اسمُ السلام عليكُما ومَنْ يبكِ حوْلًا كاملًا فقدِ اعتذَرْ[٦١]

فكيف يمكن التوفيق بين ما يروون له من الشعر في الإسلام، وزعمهم أنه لم يقل فيه غير بيت واحد؟ … أما نحن فنرى أن لبيدًا نظم الشعر في الإسلام كما نظمه في الجاهلية، ومن تدبر أشعاره بروية، استروح في بعضها نفحة قرآنية لا تخفى، مثال ذلك قوله:

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خيرُ نَفَلْ وَبِإِذْنِ اللهِ رَيثي والعَجَلْ[٦٢]
أحـمَـدُ الـلـه ولا نِـدَّ لَـهُ بيَدَيْهِ الخَيْرُ ما شاءَ فعَلْ[٦٣]
مَن هَداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدَى ناعِمَ البال ومَن شاءَ أضَلّ

فمثل هذا الشعر — إذ صحَّ — لا يقوله إلا شاعر عرف الإسلام، وتأثر بالقرآن.

وزعم ابن قُتيبة وغيره: أن الحارث الأعرج الغساني وجَّه إلى المنذر بن ماء السماء مائة فارس وأَمَّر عليهم لبيدًا، فساروا إلى عسكر المنذر، وأظهروا أنهم أتوه داخلين في طاعته. فلمَّا تمكنوا منه قتلوه، وركبوا خيلهم، فلحقهم القوم فقتلوا أكثرهم ونجا لبيد، فأتى ملك غسان فأخبره، فحمل الغسانيون على عسكر المنذر فهزموهم، فكان ذلك يوم حليمة.

ولكن الرواة يجمعون على أن لبيدًا كان حدثًا لَمَّا قدم النعمانَ في وفد من بني عامر. وبين النعمان أبي قابوس وابن ماء السماء نحو نصف قرن، فكيف كان لبيد فارسًا مغوارًا على عهد المنذر بن ماء السماء، ثم كيف أصبح غلامًا مقزَّع اللمة على عهد النعمان بن المنذر؟ … أليس هذا من خلط الرواة وأضاليلهم؟ فلبيد بن ربيعة لم يعرف المنذر ولا الحارث الغساني، وإنما عرف النعمان وكان صبيًّا، والذي ذكره ابن قتيبة هو غير شاعرنا.

(٤-٢) آثاره

أشعار وصل إلينا منها قدر يسير فجمعت في ديوان وطبعت «بفينَّا»، ثم ترجمت إلى الألمانية. وفي جملة هذه الأشعار مطولته، وهي المعلقة الرابعة.

(٤-٣) ميزته

لا ينبغي أن نلتمس ميزة لبيد في المعلقة وحدها، فهي لا تغنينا عن سائر شعره لنتبين خصائصه، وندرك منزلته. فالمعلقة تبدي لنا حياة رجل بدوي كريم، كلف بالمجد والمعالي، ولكنها لا ترينا ذلك الشيخ الحكيم الذي يحسن وعظ نفسه وتعزيتها عند نزول المصائب. فلا بد لنا إذًا من أن ندرس مع المعلقة شيئًا آخر من شعره لنعرف من هو لبيد، وما هي ميزته الشعرية.

أما المعلقة: فلها شأن أدبي لا يستهان به، وإن تكن دون المعلقات الثلاث التي مرت بنا، وهي في متانة لفظها وصلابة أبياتها، تمثل الحياة البدوية الساذجة، وتمثل الشعر المُضَري أحسن تمثيل. وقد بدأها لبيد بوصف الديار الخالية وتعرضها للأمطار فأجاد الوصف وفاق وغيره.

ثم يتخلص إلى الغزل بسؤال الديار عن أهلها، فيوجز في وصف الفراق وذكر صاحبته نَوار. ثم ينتقل — على عجل — إلى وصف ناقته التي تساعده بالأسفار على قطيعة من صرمت حباله، وهو في غزله — كما في سواه — صلب حزيم لا يلين أسره ولا ترقُّ ألفاظه، ولا يبالي أن يقطع مودة من هجره.

ويأخذ بعد ذلك في وصف ناقته، وهو أروع أقسام المعلقة، ولكنه لا يصف أعضاءها كما فعل طرفة، بل يجعل همه في تصوير سرعتها فيتسع خياله لثلاثة تشبيهات رائعة رويَّة، يورد اثنين منها في أسلوب قصصي فكه. فشبهها أولًا بالسحابة الحمراء خفت بها ريح الجنوب فدفعتها أمامها فأسرعت في جريها وهي خالية من الماء. ثم شبهها بأتان وحشية نشيطة غار عليها قرينها من الفحول، فدفعتها أمامه يسوقها سوقًا عنيفًا حتى اعتزل بها في أعالي الآكام فسلخا ستةَ أشهر في الشتاء والربيع يرعيان الرطب صائمين عن الماء، فلمَّا هبت رياح الصيف واشتدَّ الحرُّ ونبت الشوك فأصاب حوافرهما انطلقا مسرعين يطلبان الماء، وخيم عليهما غبار كأنه دخان نار موقدة، وكان العير يعدو وراء الأتان فما يدعها تتأخر عنه لئلًا تفلت منه، وظلَّا في عدوهما حتى بلغا الماء فورداه. وهنا ينتقل إلى التشبيه الثالث سائلًا نفسه: أفتلك الأتان تشبه ناقتي في سرعتها؟ أم تشبهها بقرة وحشية افترس السبع ولدها فأسرعت في السير تبحث عنه، وظلت في طلبه حتى أدركها الليل فأمطرتها السماء ديمةً مدرارًا «في ليلة كَفَر النجومَ ظلامُها»[٦٤] فلجأت إلى شجرة في الرمل تتقي بأغصانها البرد والمطر فما تقيها، وكثبان الرمل تنهال عليها، ولكنها يئست من ولدها بعد أن طال بحثها عنه، وجف ضرعها بعد امتلائه، ثم راعها

الرماة بكلابهم فجدَّت في العدو، فطاردها الكلاب فلم ترَ بدًّا من أن تدافع عن نفسها، فقابلتهن بقرنها؟

وبعد أن ينتهي من تشابيهه الثلاثة يعود إلى نفسه فيصفها بإباء الضيم والشمم، ثم ينصرف إلى وصف حياته في هدوئها واضطرابها، فهو في السلم صاحب لهو وطرب يشرب الخمر ويُغلي ثمنها، ويدفع بها شدة البرد والريح:

بصَبُوحِ صافيةٍ وجَذْبِ كَرينةٍ بِمُوَتَّرٍ تأتالُهُ إبْهامُهَا[٦٥]

وهو كريم جواد ينحر الجَزور، ويطعم الفقراء والمساكين. وهو في الحرب شجاع باسل يحمي الحيَّ، ويرقب الأعداء على جبل قريب من جبالهم ورواياتهم، تحمله فرس سريعة الجري، يتوشح بلجامها ليظلَّ متأهِّبًا لركوبها.

وبعد أن وصف فرسه بإيجاز، أخذ يفتخر بقومه، فأرانا فيهم كرمًا ونجدة وأمانة:

وإذا الأمانَةُ قُسِّمَتْ في مَعْشَرٍ أوفى بأوفَرِ حَظِّنا قَسَّامُهَا[٦٦]

فمعلقة لبيد تمثل شطرًا من حياة البدوي الأبي النفس، العالي الهمة، الصادق في تصوير أخلاقه، ولكنها لم تمثل لنا ميزة الحِكَم في الشاعر، فهذه نجدها في رثائِه لأخيه أَرْبَد،[٦٧] ووعظه نفسه لتتأسى وتعتصم بالصبر الجميل. وقد أثر الحزن في الشاعر فأرقَّ رثاءَه، فلست ترى فيه تلك الصلابة التي تجدها في أبيات المعلقة.

ولكن عقل الشاعر الحكيم سيطر على عاطفته، فحبسها عن الإرنان والتفجع، وسما بصاحبه إلى المثل الأعلى، إلى الحكمة التي تجعل الإنسان يقوى على ضعفه، فإذا بنا نرى من لبيد واعظًا مرشدًا يعزي نفسه بأنواع الأمثال الحكيمة، ويقابل مصيبته بمصائب الناس فتهون عليه ويخف جزعه، ولماذا يجزع وكل امرئ في هذه الحياة الدنيا سيموت؟ …

فلا جَزَع أنْ فَرَّقَ الدَّهرُ بيْنَنَا فكلُّ امرئ يومًا له الدَّهرُ فاجعُ[٦٨]

ففي هذا الرثاء وفي غيره من شعره حِكَم تسمو إلى ما بعد الطبيعة حتى تتصل بالعزَّة الإلهية، لذلك لا نعتقد أن لبيدًا قالها في جاهليته ووثنيته، وهذا ما يجعلنا ننفي زعم الرواة أنه لم يقل غير بيت واحد في الإسلام.

(٤-٤) منزلته

قال أبو زيد القرشي: «لبيد أفضلهم في الجاهلية والإسلام، وأقلهم لغوًا في شعره.» وجعله ابن سلام في الطبقة الثالثة وقال فيه: «وكان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام.» وروي أن النابغة نظر إليه وهو صبي مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر فقال له: «يا غلام، إن عينيك لَعَيْنَا شاعر، أفتقرض الشعر؟» قال: «نعم.» قال: «فأنشدني.» فأنشده:

أَلَمْ تُلْمِمْ على الدِّمَنِ الخَوالي لِسَلْمى بالمَذانِبِ فالقَفالِ؟[٦٩]

فقال له النابغة: «أنت أشعر بني عامر. زدني.» فأنشده:

طَلَلٌ لِخَوْلَةَ بالرُّسَيْسِ قديمُ بمَعاقِلٍ فالأنْعَمَينِ وُشُومُ[٧٠]

فقال له: «أنت أشعر بني هَوازن.[٧١] زدني.» فأنشده معلقته. فقال له: «اذهب فأنت أشعر العرب.»

وسواء صحَّت هذه الرواية أو لم تصحَّ، فمنزلة لبيد في الشعر جليلة، فهو وإن يكن قصَّر في معلَّقته عن امرئ القيس في التشابيه والاستعارات ووصف الجواد والمطر، وعن طرفة في وصف أعضاء الناقة، وذكر حياته، وعن زهير في وصف الفراق والحرب، وفي سياسة القبيلة، فإنَّه فاقهم جميعًا بوصف الديار الخالية، وبتشبيهاته القصصية في وصف سرعة الناقة. وهو يمتاز في رثائه المحلَّى بالمواعظ، وفي تِلك الحِكَم البليغة التي تدلُّ على إيمان بالله مكين …

(٥) عمرو بن كلثوم (القرن السادس)

(٥-١) حياته

هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتَّاب التَّغْلبي من أهل الجزيرة، وأُمه ليلى بنت المهلهل أخي كليب وائل، وأبوه كلثوم من سادات تغلب. نشأ عمرو شديد العُجب بنفسه، فخورًا بمناقب أبيه وأخواله، فسادَ قومَه صبيًّا في الخامسة عشرة من عمره.

(٥-٢) الخلاف بين بكر وتغلب

عرفنا في كلامنا على المهلهل وحرب البسوس، أن الملك المنذر — والد عمرو بن هند — أصلح بين العشيرتين بعد عداء دام أربعين سنة، ولكنه خشي أن تعودا إلى القتال؛ فأخذ من كلٍّ حيٍّ منهما مائة غلام رهينة، حتى إذا اعتدت إحداهما على الأخرى أقاد[٧٢]من الرهائن.

ولما تولى المُلكَ عمرو بن هند حذا حذو أبيه في الارتهان من العشيرتين. وكان أن سيَّر ذات يوم ركبًا من تغلب وبكر إلى جبال طيِّئٍ في أمر من أموره، فنزلوا في أرض لبني شيبان أحلاف البكريين فقيل إنهم أجلوا التغلبيين عن الماء، ودفعوهم إلى مفازة فتاهوا وماتوا عطشًا. وقيل بل هبت عليهم سَموم في بعض مسيرهم فهلك التغلبيون وسلم البكريون. فلما بلغ ذلك بني تغلب غضبوا وطلبوا ديات أبنائهم من بني بكر، فأبت أداءَها، فاحتكموا إلى عمرو بن هند فقال لهم: «ما كنت لأحكم بينكم حتى تأتوني بسبعين رجلًا من أشراف بكر بن وائل فأجعلهم في وثاق عندي، فإن كان الحقُّ لبني تغلب دفعتهم إليهم، وإن لم يكن لهم حقٌّ خليت سبيلهم.» ففعلوا وتواعدوا ليومٍ يعيِّنه، يجتمعون فيه.

ولما كان يوم التقاضي انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها عمرو بن كلثوم، وانتدبت بكر للدفاع عنها أحد أشرافها النعمان بن هرِم.

وكان عمرو بن هند يؤثر التغلبيين على البكريين، ويميل إلى إنصافهم، فجرى بينه وبين النعمان جدال غضب له الملك فطرد النعمان من حضرته، وأنشد عمرو بن كلثوم مطولته فافتخر على خصومه، مندفعًا مع العاطفة في التبجح على ملك العراق منددًا به مهدِّدًا إياه حتى أحفَظَه. ثم وقف الحارث بن حلِّزة البكري فردَّ عليه بمطولته واستمال الملك بدهائه، فحكم للبكريين.

(٥-٣) قتله عمرو بن هند

كان بنو تغلب من أشدِّ العرب في الجاهلية حتى قيل: «لو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس.» وروي أن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: «أتعلمون أحدًا من العرب تأنف أمُّه من خدمة أمِّي؟» قالوا: «لا نعلمها إلا ليلى أم عمرو بن كلثوم.» قال: «ولمَ ذلك؟» قالوا: «لأن أباها مهلهل ربيعة، وعمَّها كليب وائل، أعزُّ العرب، وبعلها كلثوم بن عتَّاب

فارس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيِّد قومه.» فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، وسأله أن يُزيرَ أُمَّهُ أُمَّه، فأقبل عمرو من الجزيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت ليلى في ظعن من نساء تغلب، وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا، ودخل عمرو بن كلثوم رواقه، ودخلت أمه ليلى قبة هند أُم الملك عمرو، وعمة امرئ القيس الشاعر.

وكان عمرو بن هند قد أوعز إلى أمه أن تنحِّي الخدم وتستخدم ليلى إذا دعا بالطُّرَف.[٧٣] فلما دعا بها قالت هند: «يا ليلى ناوليني ذلك الطبق.» فقالت: «لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها.» فأعادت عليها، فلما ألحَّت صاحت ليلى: وا ذُلَّاه! يا لتغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلَّق بالرواق وليس سيف هناك غيره، فضرب به رأس الملك حتى قتله، ونادى في بني تغلب فانتهبوا جميع ما في الرواق وساروا نحو الجزيرة.

وفي ذلك يقول أُفنون بن صَريم التغلبي مفتخرًا بفعل عمرو بن كلثوم:

لَعَمْرُكَ ما عمرو بنُ هند وقد دعا لِتَخْدُمَ ليلى أُمَّهُ بِمُوفَّقِ
فقامَ ابنُ كُلثومٍ إلى السْيفِ مُصْلَتًا فأمسَكَ مِنْ نَدْمَانِهِ بالمُخَنَّقِ[٧٤]
وجَلَّلَهُ عَمْرٌو على الرّأسِ ضَرْبَةً بِذي شُطَبٍ صافي الحديدةِ رَونقِ[٧٥]

وضُرب المثل بعمرو بن كلثوم في الفتك، فقيل: «أفتك من عمرو بن كلثوم.»

(٥-٤) محاربته النعمان

ظلَّ المناذرة يناوئون بني تغلب ويحاربونهم برجالهم وأحلافهم حتى اضطرهم المنذر الرابع أخو عمرو بن هند إلى الجلاء عن الجزيرة، فأتوا أرض الشام وعليها الغساسنة، فمرَّ بهم عمرو بن أبي حُجر الغساني، وقال ابن الأثير: بل خرج ملك غسان — وهو الحارث بن أبي شَمِر — فلم يستقبلوه، فاغتاظ وطلب سيدهم عمرو بن كلثوم وتوعده، فاقتتلوا فانهزم بنو غسان وقُتل أخو الحارث في عدد كبير. فقال عمرو بن كلثوم:

هَلَّا عَطَفتَ على أخِيكَ إذا دَعَا بالثُّكلِ وَيلَ أبيكَ يا ابنَ أبي شِمِرْ!

ثمَّ رجع بنو تغلب إلى الجزيرة، وعلى الحيرة أبو قابوس النعمان بن المنذر الرابع، فأرسل لمحاربتهم جيشًا على رأسه ابنه المنذر، فكسرهم بنو تغلب، وقُتل المُنذر بن النعمان، وقاتِلُهُ مُرَّة أخو عمرو بن كلثوم، وإلى هذه الحادثة، وإلى مقتل عمرو بن هند يشير الأخطل التغلبي بقوله مفتخرًا على جرير:

أبَني كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذا قَتَلا المُلوك وفكَّكا الأغلالا[٧٦]

وقال الفرزدق يردُّ على جرير في هجائه الأخطل:

قَوْمٌ هُمُ قَتَلُوا ابنَ هِندٍ عَنْوَةً عَمرًا وهمْ قَسَطوا على النُّعمانِ[٧٧]

ثم أرسل النعمان يتوعَّد عمرًا، فأخذ عمرو يهجوه ويعيره أمَّه سلمى، وكانت ابنة صائغ وأُخت صائغ. فمن قوله:

لَحا اللهُ أدْنانا إلى اللُّؤمِ زُلْفَةً وَألأمَنَا خالًا وأعجَزنا أبا[٧٨]
وأجدرَنا أنْ يَنفُخَ الكيرَ خالُه يصوغُ القُروطَ والشنُّوفَ بيثربا[٧٩]

(٥-٥) أسره

أغار عمرو بن كلثوم على بني تَميم في البحرين، ثم مال على حيٍّ من بني قيس بن ثعلبة فأصاب مالًا وأسارى وسبايا، حتى إذا انتهى إلى بني حنيفة في اليمامة، خرج إليه منهم بنو سُحَيم وعليهم يزيد بن عمرو بن شَمِر، وكان شديدًا جسيمًا؛ فحمل على عمرو فطعنه، فصرعه عن فرسه، وأسره وشدَّه القِدَّ[٨٠] ثم قال: «أنت الذي تقول:

متى نَعْقِدْ قَرينَتَنَا بَحبْلٍ تَجُذ الحَبلَ أو تُقصِ القرينا

أما إني سأقرنُك إلى ناقتي هذه فأطردكما جميعًا.» فعزَّ على عمرو بن كلثوم أن يُحقَّر ويهان، فصاح: «يا لَربيعة! أمُثلَةٌ!»[٨١] فاجتمع قوم يزيد فنهوه ولم يكن يريد ذلك إنما أراد تبكيته. فسار به حتى أتى قصرًا بحَجْر[٨٢] من قصورهم، وضرب عليه قبة، ونحر له وكساه، وسقاه الخمر، فلما أخذت برأسه أنشأ يمدحه بأبيات قال فيها:

جَزى اللهُ الأغرَّ يَزيدَ خَيرًا ولَقَّاهُ المَسَرَّةَ والجَمالا!

(٥-٦) موته

عاش عمرو بن كلثوم حتى بلغ من الكِبَر عِتِيًّا،[٨٣] وشبعت نفسه من الغزوات والانتصارات، وذاق من الدهر حلوه ومرَّه، فلما حضرته الوفاة جمع بنيه وأوصاهم:

> يا بَنيَّ، قد بَلغتُ مِنَ العمرِ ما لم يبلغه أحدٌ من آبائي، ولا بد أن يَنزل بي ما نَزَلَ بهم منَ الموت. وإني والله ما عيَّرتُ أحدًا بشيءٍ إلاَ عُيِّرتُ بِمثله، إنْ كانَ حقًّا فحَقًّا وإن كان باطِلًا فباطِلًا، ومَن سَبَّ سُبَّ، فَكُفُّوا عن الشتم، فإنه أسلَمُ لكُمْ، وأحسِنوا جِواركمْ يَحْسُنْ ثناؤكم. وامنعوا من ضَيمِ الغَريب، فَرُبَّ رَجُلٍ خَيرٌ من ألفٍ، وردٌّ خيرٌ من خُلْف.[٨٤] وإذا حُدِّثْتُمْ فَعُوا؛[٨٥] وإذا حَدَّثْتُمْ فأوْجِزوا، فإنَّه مع الإكثارِ يكون الإهذارُ،[٨٦] وأشجَعُ القَوم العَطوفُ[٨٧] بعد الكَرِّ، كما أنَّ أكرمَ المَنايا القَتلُ. ولا خَيْرَ فيمَنْ لا رَوِيَّةَ لَهُ عندَ الغَضَبِ، ولا فِيمَنْ إذا عُوتِبَ لم يُعْتِبْ.[٨٨] ومِنَ النَّاسِ مَنْ لا يُرْجَى خَيْرُهُ، ولا يُخافُ شَرُّهُ، فبُكوءُهُ خَيْرٌ من دَرِّهِ،[٨٩] وعُقُوقُهُ خَيْرٌ من بِرِّهِ، ولا تتزَوَّجوا في حيِّكمْ، فإنَّهُ يُؤدِّي إلى قَبِيحِ البُغْضِ. ا.هـ.

غير أنَّنا لا نقطع بصحة هذه الوصية، وإن تكن قليلة التكلُّف اللفظي، خالية من الإغراب الذي نجده في أكثر النثر المنسوب إلى عرب الجاهلية، وهو ليس من صنعهم بل من صنع شيوخ العلم في الإسلام، وفي الوصية سهولة ولين يوافقان أسلوب عمرو بن كلثوم في شعره.

وهناك رواية ذكرها ابن قتيبة في الشعر والشعراء وهي أن عمرًا، عندما أُسر في بني حَنيفة، ظلَّ يشرب الخمر صرفًا لشدة غيظه حتى مات. فهو أحد الأشراف الذين قتلتهم الخمر.

وعمرو مذكور في طبقات المعمَّرين، وأكثر الرُّواة يزعمون أنَّه مات وله من العمر خمسون سنة ومائة.

(٥-٧) آثاره

لم يصل إلينا من شعر عمرو بن كلثوم شيء يستحقُّ الذكر غير المعلقة، وأمَّا ما بقي فأبيات ومقطعات قليلة، منها في الافتخار بنفسه وقومه، ومنها في مدح يزيد بن عمرو، ومنها في هجاء عمرو بن هند والنعمان أبي قابوس. وقد أوردنا بعضها في هذا البحث.

أما معلقته فهي الخامسة بين المطولات، قيل: إنه وقف بها خطيبًا في سوق عكاظ وفي موسم مكة، ويُستدلُّ من بعض أبياتها أنها على قسمين نُظما في زمانين متباعدين يوم التقاضي، والآخر بعد مقتل عمرو بن هند، في حين أن الأصمعيَّ يزعم أنها قيلت يوم التحكيم دفعة واحدة. فإذا عرضنا بالنقد للقسم الذي قد يُظنُّ أنَّه نظم بعد مقتل الملك، لا نجد فيه إلا بيتًا واحدًا يمكن أن يستأنس به كدليل أو شبه دليل، وهو:

تُهدِّدُنا وتوعِدُنا رُويدًا! متى كُنَّا لأُمِّك مَقتَوينا!

فقوله: «متى كنَّا لأمِّك مقتوينا؟» أي خادمين، لا يصعب علينا أن نجد له تفسيرًا في قصة ليلى وهند، فنطمئن إلى القول بأن المعلقة نظمت في مرحلتين. غير أن البيت الذي يتقدمه يدل على أن الشاعر يؤنِّب عمرو بن هند؛ لأنَّه ولَّى على بني تغلب أميرًا من قِبلَه يحكم فيهم، والبدوي لا يرضى بسيادة الغريب إلا مكرهًا، فإذا سنحت له الفرصة وثب عليه فقتله وتخلَّص منه. فالشاعر يقول:

بأيِّ مَشيئةٍ عَمرَو بنَ هندٍ نكونُ لِقَيْلِكُمْ فيها قَطِينا؟[٩٠]

فبنو تغلب — كما يتبين — ساخطون على عمرو بن هند لأمر لا علاقة له بحادثة الطُّرَف. فقوله إذًا في البيت التالي: «متى كنَّا لأمِّك مقتوينا؟» يقتضي أن لا يعني بحدِّ ذاته حادثة خاصة، وإنما مفاده أن بني تغلب ليسوا بخدم للملوك أو لأمهاتهم ليستبدَّ هؤلاء بهم، ويولوا عليهم من يشاءون. ولا نجد في بقية الأبيات التي تتناول عمرو بن هند إلا تبجح ابن كلثوم واعتداده بصلابة عوده وتمرُّده على كل من يريد أن يتحكم به أو بقومه:

فإنَّ قناتَنا يا عمرو أعيَتْ على الأعداءِ قبلَكَ أن تلينا

وليس في ذلك ما ينافي قوله السابق: «نكون لقيلكم فيها قطينا.» بل هو — بالأحرى — تأكيد له وتبليغ، ويصح أن تكون هذه الأبيات قد قيلت يوم التقاضي، وأغضبت عمرو بن هند فحكم للبكريين، كما قيلت الأبيات التي قبلها وفيها ما يشبهها مثل قوله:

وأيـامٍ لـنـا غُـرٍّ طِـوالٍ عصَينا المَلْكَ فيها أن نَدينا

وإذا تتبَّعنا المعلقة إلى آخرها بعد الأبيات التي يأتي فيها ذكر عمرو بن هند نرى أنها متصلة كل الاتصال بيوم التقاضي، فيها مفاخرة بالقبيلة ومنافسة للبكريين، كما تقتضي شروط المنافرة والتحكيم في العصر الجاهلي، مما يؤيد أن المعلقة قيلت دفعة واحدة كما ذكر الأصمعيُّ.

(٥-٨) ميزته

عمرو بن كلثوم صورة طبق الأصل عن جدِّه المهلهل، فهو فخور مثله، متكثر مثله، كذوب مثله، وفي شعره سهولة وتكرار وهلهلة كما في شعر جده. ولا عجب أن يتشبَّه الولد بأبيه وجده أو عمِّه وخاله، وإنما العجب أن يشذَّ عنهم فلا يتأثر بهم في شيء كما هو شأن امرئ القيس، وقد زعموا أنَّه ابن أخت المهلهل.

يبتدئ عمرو معلقته بوصف الخمرة وتأثيرها في شاربها، ثمَّ ينتقل إلى الغزل، فيستوقف صاحبته ليحدثها عن الحرب شأن الشعراء الفرسان، ولكنه يجتزئ ببيت واحد وينتقل إلى وصف ذراعيها، وصدرها، وقامتها، ويرى بعضهم أن مطلع القصيدة يبتدئ بهذا القسم، والمشهور خلاف ذلك. فإذا بلغ إلى مخاطبة عمرو بن هند، أخذ في الافتخار والتهديد، وهنا تظهر الصلة واضحة بين شعره وشعر جده المهلهل، فأخرجه على طريقته فخرًا وحماسة، مندفع العاطفة حتى الغلوِّ المتطرف، قليلًا فيه عمل الخيال التصويري، وأقلَّ منه عمل التفكير. ليس إلا شعورًا يتدفق، وحمية تشتعل، ونفسًا تثور فتتخطَّى الحواجز والحدود، مرتدية من الألفاظ ثوبًا نسجته على هواها، لم تمتدَّ إليه يد صناع فتشدَّ سداه ولحمته، وتحكم وشيه وتخطيطه. فخرج على سجيته من حسن ورديء، عصبي المزاج في تركيبه، تدافعت حروفه تدافع الأمواج الجائشة، فيها صخب ولين، وعود وتكرار، وتفكك واتصال. أكثره في الفخر، وأقلُّه في المدح والهجاء. افتخر

ممتلئ النفس حماسة، وهجا ثاثرًا منتقمًا، ومدح شاكرًا لا متكسبًا. وليس من غرضنا أن نبحث في مدحه وهجائه، وهما لا خطر لهما في شعره. وإنما غرضنا أن نظهر تلك الشخصية البدوية في كبرها واعتدادها، في تهورها وغليان مشاعرها. فالفخر عند ابن كلثوم يخرج صورة جليَّة تبرز نفسية سيد عريق يستأثر بالفضائل الجاهلية، ويتكلم بأنا ونحن، أنانيًّا بصيغة المفرد، أميرًا بصيغة الجمع، مناقبه غنية في ذاته، ومناقب قومه مردودة إليه. يبذل المال ولا يبالي. فإذا لامته العاذلة وحذرته من العوز، أراها مُهره يكر على الأحياء يغزو ويغنم:

يُخلِفُ المالَ فلا تَسْتَيْئِسي كَرِّيَ المُهرَ على الحَيِّ الحِلالِ[٩١]

والعاذلة في الشعر العربي شخص رمزي يقرع أبواب الفخر والمدح والغزل، يلوم المفتخر والممدوح والعاشق على الإتلاف والتبذير وإلقاء النفس في المخاطر، وعلى التمادي في الصبا والغواية، فيردُّه الأول والثاني، ويرده الثالث لا يقبلون منه نصحًا، وفي ذلك منتهى الكرم والشجاعة والهيام. وقد ردَّ عمرو بن كلثوم عاذلته:

لا تلوميني فإنِّي مُتلفٌ كلَّ ما تحوي يميني وشِمالي

وحقيق بمثله أن يردَّها، فعنوان الكرم عندهم عذل ورد. ونفسه الجبارة يطيب لها أن تتحدَّث بأَنَا عن كرمها وبأسها، كما تتحدث بنحن عن مفاخر قومها، وفي هذا وذاك لا تتحرَّج أن تغالي وتفرط في المغالاة حتى الكذب:

ملأنَا البَرَّ حتى ضاق عَنَّا وظَهْرُ البحرِ نَمْلؤهُ سَفينا
لنا الدُّنْيا ومَنْ أضْحى عليْها ونَبْطِشُ حين نَبطِشُ قادرينا
إذا بلَغَ الفِطامَ لنا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدينَا

فقد ملأ شاعرنا البرَّ والبحر بجيوشه وسفنه، وجعل الدنيا ومن عليها ملكًا له ولبني تغلب، وترك الجبابرة تسجد لفطيمهم. فأما وقد رأيت ذلك فلا تحمل نفسك على معرفة ما كان له من قوى برية وبحرية. بل حسبك أن تعلم أنَّه سبط المهلهل، وأن جده، لولا عصف الرياح، لأسْمَعَ صليلَ سيوف قومه على مسافة عشرة أيام. وغير عجيب أن

يخسر التغلبيون قضيتهم عند عمرو بن هند، بعدما أوسعه ابن كلثوم تهديدًا ووعيدًا ومكاثرة وفخرًا.

(٥-٩) منزلته

تبين مما تقدم أن عمرو بن كلثوم ورث عن جده المهلهل أكثر ميزاته، فله رقته ولينه، وله تكراره وتكثره، وله غلوه وكذبه، وله تبجُّحه ووعيده. وفي شعره فوائد تاريخية نراها في المعلقة وغير المعلقة، فهو يخبرنا — في هجوه النعمان — أن أم النعمان كانت ابنة صائغ، وأن أخاها صائغ ينفخ الكير في يثرب. ويذكر لنا في مطولته كيف كانت النساء تتبع الرجال في الحروب، وتقوت جيادهم، وتحثهم على الصبر في القتال، ويطلعنا على شيء من صناعات العرب وملاهي أولادهم.

ولمعلقته ميزات بوَّأته منزلة سامية في الشعر. فهي في سهولتها وانسجامها، وفي رنَّتها الموسيقية المطربة أصدق مثال للشعر الغنائي، مع ما فيها من عناصر ملحمية في ذكر الحروب وتمجيد قومه وتصوير الحياة البدوية. وهي على غلوها ومكاثرتها، معجبة محبوبة لبعدها من التكلف. فإذا غالت وكاثرت، فإنما هي تتكلم بعاطفتها لا بعقلها. فالفخر عند ابن كلثوم عاطفي محض لا سلطة للعقل عليه.

وقد بلغت معلقته — على منزلتها الأدبية — منزلة قومية، لم تبلغها قصيدة سواها. فإن بني تغلب كانوا يعظمونها جدًّا، ويرويها صغارهم وكبارهم، حتى هجاهم بذلك بعض بني بكر أعدائهم فقال:

ألْهَى بني تَغْلِبٍ عن كلِّ مَكرُمةٍ قصيدةٌ قالها عمرُو بنُ كُلثُومِ
يَروونَها أبَدًا مُذْ كانَ أوَلُهُمْ يا للرِّجالِ لِشِعْرٍ غَيْرِ مَسْئومِ![٩٢]

وقال المفضَّل الضبي: «لله درُّ عمرو بن كلثوم لو أنَّه رغب في ما رغب فيه أصحابه من كثرة الشعر، ولكن واحدته أجود من مِئتهم.» وروى أبو زيد القرشي في جمهرته عن عيسى بن عمر قوله: «لو وضعت أشعار العرب في كفة، وقصيدة عمرو بن كلثوم في كفة، لمالت بأكثرها.»

(٦) عنترة (مات في العقد الأول من القرن السابع)

(٦-١) حياته

هو عَنترة[٩٣] بن شدَّاد بن عمرو، وقيل ابن عمرو بن شدَّاد بن معاوية بن قُراد العبسي، من أهل نجد، ينتهي نسبه إلى مُضر، ويُكنى بأبي المغلِّس[٩٤] لغاراته في الغَلَس، ويلقب بعنترة الفوارس لشجاعته، وعنترة الفلحاء[٩٥] لانشقاق شفته السفلى، وهو أحد أغربة[٩٦] العرب المشهورين في الجاهلية، سموا بذلك لسوادهم، وهم ثلاثة: عنترة، وخُفَاف بن نُدْبة السُّلَمي، وندبة أُمُّه، والسُّلَيك بن السُّلَكة،[٩٧] والسُّلكة أمُّه.

وأُم عنترة حبشية سوداء، يقال لها زبيبة، سباها أبوه في إحدى غزواته فأولدها عنترة، وكان لها أولاد عبيد من غير شداد، فلم يعترف به أبوه في أوَّل الأمر، بل أنكره جريًا على عادة العرب؛ لأنَّهم كانوا يستعبدون أولاد الإماء، ولا يعترفون بهم إلا إذا ظهرت عليهم النجابة.

(٦-٢) أخلاقه وشجاعته

وكان أشدَّ أهل زمانه، وأجرأهم فؤادًا، وأسخاهم يدًا. وهو على شجاعته وشدَّة بطشه، حليم، لين الطباع، سَمْح المخالقة[٩٨] إذا لم يُظلَم. وفي ذلك يقول:

أَثْني عليَّ بما عَلِمْتِ فإنَّني سَمْحٌ مُخالَقتي إذا لم أُظلَمِ

ولَما أُنشد النبيُّ قوله:

ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأظَلُّهُ حتى أنالَ بِهِ كَريمَ المأكَلِ[٩٩]

قال: «ما وُصف لي أعرابيٌّ قطُّ فأحببت أن أراه، إلا عنترة.»

ورُوي عن عمرو بن مَعْدِ يكَرِب، وكان معاصرًا له، أنَّه قال: «لو سرتُ بظعينة[١٠٠] وحدي على مياه مَعَدٍّ كلِّها، ما خِفتُ أن أغلب عليها، ما لم يلقَني حُرَّاها أو عَبْداها. فأمَّا الحُرَّان فعامِرُ بن الطُّفَيْل، وعُتيبة بن الحارث بن شِهاب، وأمَّا العبدان فأسْوَد بني عبس (يعني عنترة) والسُّليَك بن السُّلَكة؛ وكلُّهم لاقيت. فأمَّا عامر بن الطُّفَيْل فسريع الطعن

على الصوت، وأمَّا عُتيبة فأوَّل الخيل إذا أغارت، وآخرها إذا آبت،[١٠١] وأمّا عنترة فقليلُ الكبوة، شديد الجَلَب،[١٠٢] وأمَّا السُّليك فبعيد الغارة كاللَّيث الضاري.»

وحدَّث عمر بن شبَّة قال: قال عمر بن الخطَّاب للحُطيئة: «كيف كنتم في حربكم؟» قال: «كنَّا ألف فارس حازم.» قال: «وكيف ذلك؟» قال: «كان قيس بن زهير فينا وكان حازمًا، فكنَّا لا نعصيه، وكان فارسنا عنترة، فكنَّا نحمِلُ إذا حَمَل ونُحْجِم إذا أحجم، وكان فينا الربيع بن زياد، وكان ذا رأي، فكنَّا نستشيره ولا نخالفه. وكان فينا عُروَة بن الورد، فكنَّا نأتمُّ بشعره، فكنَّا كما وصفت لك.» فقال عمر: «صدقت.»

وقال الهَيثم بن عَدي: قيل لعنترة: «أنت أشجع العرب وأشدُّها؟» قال: «لا.» قيل: «فبماذا شاع لك هذا في الناس؟» قال: «كنت أُقدم إذا رأيتُ الإقدام عزمًا، وأُحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا، ولا أدخل موضعًا إلا أرى لي منه مخرجًا. وكنت أعتمد الضعيف الجبان، فأضربه الضربة الهائلة، يطيرُ لها قلبُ الشجاع، فأثنِّي عليه فأقتله.»

(٦-٣) وقائعه

لعنترة كثير من الوقائع المشهورة، ولكن أضيف إليه ما ليس له حتى اشتبه الصحيح بالموضوع. وقد حضر حرب داحس والغبراء فأحسن فيها البلاء وحُمدت مشاهده، وفيها قتل ضمضمًا المريُّ أبا حُصَين وهَرم، ولذلك قال:

ولقَدْ خَشيتُ بأنْ أموتَ ولم تَدُرْ ... للحَرْبِ دائرةٌ على ابْنَيْ ضَمضَمِ
الشَّاتِمَيْ عِرْضي ولم أَشْتُمْهُما ... والنَّاذِرَين إذا لمَ الْقَهُما دَمي[١٠٣]
إنْ يَفْعَلا فلَقَد تركْتُ أباهُما ... جَزَرَ السِّباعِ وكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ[١٠٤]

(٦-٤) حبه لعبلة

وأحبَّ عبلة ابنة عمِّه مالك بن قُراد، فهاجت شاعريته واتَّسع خياله، فنظم القصائد الطوال. وازداد طموحًا إلى المعالي، فجدَّ في طلبها، ليمحو ببيض فعاله سوادَ لونه. وأنَّى له أن يطمع فيها وهو عبد لم يعترف به أبوه، وأنكره أبناء عمِّه، فغامر لأجلها ولاقى أشدَّ الأهوال حتى ألحقه أبوه بنسبه، ولكنه لم يظفر بها كما يُستدلُّ من شعره.

(٥-٦) موته

اختُلف بموته، فقال ابن حبيب وابن الكلبي: «أغار عنترة على بني نَبْهان من طيئٍ، فأطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير، فجعل يرتجز، وهو يَطَّردُها، ويقول:

حَظُّ بَني نَبْهانَ منها الأَخْبَثْ كأنَّما آثارُها بالجِثْجِثْ
آثارُ ظُلْمانٍ بِقاعٍ مُحْدَثْ[١٠٥]

وكان وَزَر بن جابر النبهاني في فتوَّة، فرماه وقال: «خذها وأنا ابن سلمى!» فقطع مطاه[١٠٦] فتحامل بالرَّميَة حتى أتى أهلَه فقال وهو مجروح:

وإنَّ ابن سَلمى عِندَهُ فاعلَموا دَمي
وهَيْهاتِ! لا يُرْجَى ابنُ سَلمى ولا دَمي

* * *

إذا ما تَمَشَّى بَينَ أجبالِ طَيِّئٍ
مَكانَ الثُّرَيَّا لَيسَ بالمُتَهَضَّمِ[١٠٧]
رَماني ولم يَدهَشْ بأَزْرَقَ لَهْذَمٍ
عَشِيَةَ حَلُّوا بَينَ نَعْفٍ ومَخْرَمِ[١٠٨]

وقال ابن الكلبي: «وكان الذي قتله يلقب بالأسد الرهيص.»[١٠٩]

وذكر أبو عمرو الشيباني: «أنَّه غزا طيئًا مع قومه، فانهزمت عبس، فخرَّ عنترة عن فرسه، ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب، فدخل دغلًا[١١٠] وأبصره ربيئة[١١١] طيئ فنزل إليه، وهاب أن يأخذه أسيرًا، فرماه وقتله.»

وقال أبو عبيدة: «إنَّه كان قد أسنَّ واحتاج، وعجز بكِبَر سنه عن الغارات. وكان له على رجل من غَطَفان بعير، فخرج يتقاضاه إيَّاه، فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شَرْجٍ وناظِرة[١١٢] فأصابته وقتلته.» على أن الرواية الأولى أشهر الثلاث، ومات عنترة بعد أن بلغ التسعين.

(٦-٦) آثاره

ديوان شعر مشهور، أصابه كثير من النحل لطول ما تداوله الرواة والقصاصون. وأكثره في الفخر والحماسة، وذكر الوقائع، والغزَل العفيف بابنة عمِّه عبلة، وقليل منه في المدح والرثاء. وأشهر شعره المعلقة، وهي السادسة بين السبع الطوال. وكان السبب في نظمها ما رُوي من أنَّه جلس يومًا في مجلس، بعدما كان قد أبلى، وحسنت وقائعه، واعترف به أبوه وأعتقه، فسابَّه رجل من بني عبس، وذكر سواده وسواد أمِّه وإخوته، وأنَّه لا يقول الشعر، فسبَّه عنترة وفخر عليه وقال:

> والله إنَّ النَّاسَ لَيَترافَدون[١١٣] لِلُّطعْمَةِ[١١٤] فما حَضَرْتَ أنتَ ولا أبوكَ ولا جَدُّكَ مرافِد[١١٥] الناس قطُّ، وإنَّ النَّاسَ لَيُدْعَونَ في الغاراتِ، فيُعْرَفونَ بتَسْويمِهِمْ،[١١٦] فما رأيتُكَ في خَيلٍ مُغيرَة، في أوائِلِ النَّاسِ قطُّ، وإنَّ اللَّبْسَ[١١٧] لَيَكونُ بَيْنَنا، فما حَضَرْتَ أنتَ ولا أبوكَ ولا جَدُّكَ خُطَّةَ الفَصْلِ.[١١٨] وإنّما أنتَ فَقْعٌ بقَرقَر،[١١٩] وإنِّي لأحتَضِرُ البأسَ،[١٢٠] وأوفي المَغْنَمَ، وأعِفُّ عندَ المسألة، وأجُودُ بما ملكت يَدِي، وأفصِلُ الخُطَّةَ الصَّمَّاءَ،[١٢١] وأمَّا الشِّعرُ فَسَتَعْلَمُ.

ثم أنشأ معلقته، وكان لا يقول قبل ذلك إلا البيتين أو الثلاثة، فتغزَّل في أوَّلها، ثم وصف ناقته، ثم تخلَّص إلى الفخر بشدَّة بأسه وذكر وقائعه. وكانت العرب تسميها الذهبية.

على أنَّنا لا نطمئن إلى زعم الرواة أن المعلقة أول قصيدة أنشأها عنترة، وأنَّه لم يكن ينظم قبلها إلا البيتين أو الثلاثة. فلعنترة قصائد كثيرة تقدمت المعلقة، والرواة أنفسهم يعترفون بها ويروونها له. وليس من المعقول أن تبقى قريحته خامدة عن نظم الشعر أعوامًا طوالًا لا يؤثِّر فيها حبُّ عبلة، ولا الوقائع التي شهدها، خصوصًا حرب داحس والغبراء، وقد حضرها وأبلى فيها البلاء الحسن، وذكرها في معلَّقته. ومن المعلوم أن هذه الحرب انتهت في أوائل القرن السابع، أي قبل وفاة الشاعر ببضع سنوات. فسواء نظمت المعلقة بعد الحرب، أو في أثنائها، فإن عنترة كان متقدمًا في السن لما أنشأها. فكيف ينبغي لنا أن نسلم بما زعم الرواة، وهم يذكرون للشاعر قصائد قيلت قبل هذه الحرب، وقبل أن يعترف به أبوه، ويوم كان يضربه بالعصا ضربًا مبرِّحًا حتى شفعت به سُمَيَّة[١٢٢] بعد أن شكته إليه، فقال فيها شعرًا جميلًا لا يصحُّ أن يكون من أوائل نظمه. فكيف يصحُّ أن تكون المعلقة أولى قصائده، وهي نادرة، كما وصفها ابن سلام

في طبقات الشعراء، ولم ينظمها الشاعر إلا بعد أن كبر وعشق ولقي الأهوال، فأخلِقْ بقريحته أن تتفتق للشعر في عنفوان الشباب، بعوامل الحبِّ والحماسة، والجد في طلب المعالي، لا أن يكون بدءُ ولادتها في خريف العمر أو في شتائه.

هذا، ولعنترة قصة شهيرة سنأتي على ذكرها في العصر الذي جُمعت فيه، وهو العصر العباسي الثالث.

(٦-٧) ميزته

عرفنا عنترة عبدًا أسود، أحبَّ ابنة عمِّه فلم يستطع الوصول إليها، وهو غير حرٍّ ينكره أبوه. وعرفناه فارسًا مغوارًا، جريء الفؤاد، طماحًا إلى المعالي، وعرفناه كريمًا جوادًا، وحليمًا سهل المخالقة، وعفيفًا شريفَ النفس أبيَّها لا يغمض على قذًى،[١٢٣] فلا غرو أن تظهر جميع هذه الصفات في شعره، ويكون لها أثر كبير فيه، ولا سيما أثر ذلك النضال العنيف الذي اشترك فيه، من ناحية: حبه وجده في طلب المعالي، ومن ناحية أخرى: عبوديته وسواد لونه، فترك في شعره مرارةً وألمًا هما صورة لما في نفسه من ألم العبودية والحبِّ ومرارة التعبير. وترك فيه أيضًا تلك الحماسة التي تتمثل بها شجاعته ونفسه الطَّمُوح.

(٦-٨) بين العبودية والفروسية

نشأ عنترة أسود اللون، أبوه شداد من سادات بني عبس، وأمُّه زبيبة أَمَة حبشيَّة، فلم يعترف شداد به جريًا على عادة العرب. فجعل عنترة في طبقة الرعيان يحلب ويصرُّ. ولكن نفس هذا الفارس الشجاع لا تحتمل العبودية وفيها من الشمم والإباء والجرأة شيء كثير. فكانت تتألَّم أشدَّ الألم لما تلقى من الاحتقار والازدراء. فتحاول جهدها أن تخرج من طبقة الرعيان في إظهار شجاعتها ولديها سلاحان ماضيان: الشجاعة والشعر، وكلاهما كَفِيلٌ بأن يجعل لصاحبه مكانة عالية في القبيلة. فالفارس يدافع عنها بسيفه، والشاعر يدافع عنها بلسانه. فلماذا لا يتحرَّر عنترة وتدَّعيه بنو عبس وهي تحتاج إليه حاجة مزدوجة؟ وقد قال صاحبنا الشعر في صباه، وشهد المعارك وهو لا يزال يحلب ويصرُّ، ولكن أباه كان حريصًا على التقاليد البدوية فأبى استلحاقه وتحريره، ولم يكن يحجم عن ضربه مع ما رأى من فصاحته وإقدامه، كما ضربه عندما حرشته عليه زوجه سميَّة ولم يكن قد تحرَّر بعد.

وما كان عنترة يجهل قدر نفسه فينام على الضيم والخمول. فقد كان يعلم حقَّ العلم أن قومه سيحتاجون إليه إذا أغاروا أو أُغير عليهم. فأخذ يلحُّ على أبيه طالبًا إليه أن يعترف به، وأبوه يُعرض عنه مخافة التعيير، وهو صابر ينتظر يومًا عصيبًا تُنكب فيه بنو عبس فيلتجئون إليه، فيغتنم الفرصة لتحقيق أمانيه، وليس هذا اليوم بعيد الوقوع، وغزوات العرب متواصلة طمعًا في الغنائم. أو طلبًا للماء والكلأ. فما طال به الأمر حتى سنحت له الفرصة التي يتوقعها.

وقد اختلف الرواة في ذكر خبرها، فقال ابن الكلبي: «وكان سبب ادِّعاء أبيه إيَّاه، أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس، فأصابوا منهم واستاقوا إبلًا، فتبعهم العبسيون. فلحقوهم. فقاتلوا عمَّا معهم، وعنترة يومئذ فيهم. فقال له أبوه: كر يا عنترة! فقال عنترة: العبد لا يُحسن الكر، إنَّما يحسن الحِلاب والصرَّ. فقال: كرَّ وأنت حرٌّ. فكَرَّ وقاتل يومئذ قتالًا حسنًا، فادعاه أبوه بعد ذلك وألحقه بنسبه.»

وحكى غير ابن الكلبي أن السبب في هذا أن عبسًا أغاروا على طيئ فأصابوا نَعَمًا، فلمَّا أرادوا القسمة قالوا لعنترة: لا نقسم لك نصيبًا مثل أنصبائنا لأنَّك عبد. فلمَّا طال بينهم الخطب، كرَّت عليهم طيئ، فاعتزلهم عنترة وقال: دونكم القوم فإنَّكم عددهم، واستنقذت طيئ الإبل. فقال له أبوه: كر يا عنترة! فقال: أوَيحسن العبد الكر؟ فقال له أبوه: العبد غيرك. فاعترف به، فكرَّ واستنقذ النَّعَم.

ويذكر السيوطي رواية هي أقرب إلى روح القصة منها إلى التاريخ، وإن وافقت في جوهرها الروايتين المتقدمين، وهو أن عنترة خلع نير العبوديَّة بحد سيفه واحتياج بني عبس إليه.

ولم يقف عنترة عند هذا الحد بل أراد أن يحرِّر إخوته لأمِّه وهم عبيد مثله، وقيل إنَّه حرَّرهم أو حرَّر منهم أخاه حنبلًا، ولكن لونه الأسود بقي شاهدًا على عبوديته واعتلال نسبه، وبقيت أمُّه زبيبة أمة لا حرة، أم ولد لا أم بنين، سوداء لا بيضاء، حبشيَّة لا عربيَّة، حجةً للناس على أنَّه هجين أخواله الزنوج. فمن أين له أن يمحو سواد لونه، أو أن يجعل أمه من ربات الحجال، ولونه لا ينصل وأمُّه لا تتحرَّر، والعرب لا يتسامحون في النسب وكرم الأمومة والخئولة. فقد جعلوا له ألقابًا تذكِّره أبدًا بسواده وأمه، فهو الغراب وأسود بني عبس، وابن السوداء وابن زبيبة، فما عليه إلا أن يقبل هذه الألقاب، ويدافع عن لونه وأمه ليخرس ألسنة المعيرين. فكان له كفاح بسيفه، وكفاح بلسانه، فجاء شعره صورةً ناطقةً بهما، مثال ذلك قوله:

وأنا المُجَرَّبُ في المَواقفِ كُلِّها من آلِ عَبسٍ مَنصِبي وفَعالي
منهم أبي حقًّا فهم لي والدٌ والأُمُّ من حامٍ فهُمْ أخوالي

فهو مفاخر بأصله من جهة أبيه، معترف بأصله من جهة أمه، وإن يكن لا يجد فيه فخرًا، ولكنه يحميه بحد سيفه من المعيرين:

إنِّي امرؤٌ مِن خَيرِ عَبسٍ مَنصِبًا شَطري وأحمي سائري بالمُنصُلِ

وقد اضطرَّ عنترة مرارًا أن يدافع عن شطره الحبشي بسلاحه دفاعه عنه بشعره ليردَّ تحامل المعيرين، ولا سيما أبناء قومه الذين يأبون الاعتراف بتقدمه عليهم لأنَّه ابن السوداء. وروي أنَّه وقف مرَّة ينشد قوله:

إذ يَتَّقونَ بيَ الأسِنَّةَ لم أخِمْ عنها ولكني تَضايَقَ مُقدَمي

فمدّ له عمارة بن زياد العبسي سنان رمحه وقال: نحن نتقي بك الأسنة يابن السوداء؟! وكان عنترة أعزل لا سلاح عليه، فقال له: اغفرها! ثم ذهب ولبس درعه وتقلَّد سيفه وركب فرسه، وأقبل حتى وقف أمام عمارة وأنشد البيت: «إذ يتَّقونَ بيَ الأسنَّة ...» فتغافل عنه عمارة حين رآه في سلاحه، فهجاه عنترة وعيَّره وافتخر عليه.

وقد ينقذ بني عبس ببسالته من بأس العدو المغير، فيأبَى سادتها إلا أن يذكروا عمله المجيد مقرونًا بسواده وأصله تحقيرًا له وتعصبًا منهم للنسب العربي الصحيح. قال أبو عمرو الشيباني: غزت بنو عبس بني تميم يقودهم قيس بن زهير، فانهزمت بنو عبس وانهزم قيس معهم، وطلبتهم بنو تميم، فوقف عنترة وحده يحمي المنهزمين من أبناء قومه، فلم يُصَب واحد منهم، وكان قيس سيدهم، فساءه ما صنع عنترة يومئذ، ورأى فيه ما يمس زعامته في القبيلة، فقال حين رجع: والله ما حمى النّاس إلا ابن السوداء! فنظم عنترة قصيدة يفتخر فيها بأصله العبسي مدافعًا عن أصله الحبشي بسيفه، قائلًا: إنَّه يفضل الجوع على أن يأكل طعامه بذل، ويعرِّض هنا بقيس؛ لأنَّه كان أكولًا وانهزم من المعركة ذليلًا:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُّه حتى أنالَ بهِ كَريمَ المأكَلِ

ثم يتابع التعريض فيقول: إذا تأخرت الكتيبة ونظر بعضها إلى بعض خوفًا من الهلاك كنت أفضل من سيِّد كريم الأعمام والأخوال؛ لأنَّني لا أسبق فوارسي إلى الهرب في المأزق الضيق:

وإذا الكتيبَةُ أحجَمَتْ وتَلاحَظَتْ أُلفِيتُ خَيرًا مِن مُعَمٍّ مُخوَلِ
إذ لا أُبادِرُ في المَضيقِ فَوارسي أو لا أُوَكَّلُ بالرَّعيلِ الأوَّلِ

ولكن قيس بن زهير قد اعترف بفضل عنترة على الرغم منه، وإن سمَّاه ابن السوداء تحقيرًا له. فعنترة وحده حمى بني عبس ورد عنها كوكبة اللاحقين، فحقَّ له أن يفتخر ويعرِّض بالذي عيره أمه وسواده، وإن كان معيره قيس بن زهير سيد بني عبس. فلطالما رأى قومه يحتمون به في الحرب ويقدمونه عليهم في مواقف الأخطار، فتشتفي نفسه المتألمة من تعييرهم:

ولقد شَفَى نَفسي وأبرأ سُقمَهَا قِيلُ الفوارِسِ وَيكَ عنترُ أقدِمِ!

ولكنه لا يلبث أن يسمع التعيير بعد زوال الخطر، فتعود إلى نفسه آلامها، فيثور ساخطًا عليهم مندِّدًا بهم؛ لأنَّهم يعرفونه في الحرب، وينكرونه في السلم، فهو مضطرب أبدًا بين العبودية والفروسيَّة، هو ابن شداد في المعارك، وابن زبيبة — ابن السوداء — في الأمن والدعة.

(٦-٩) بين الحب والحرب

لم يكن عنترة ناعمًا في حبِّه فتظهر آثار هذه النعمة على شعره، بل كان شقيًّا تاعسًا يطمع في عبلة، فيصده والدها ويحاول استرضاءه فلا يجد إلى ذلك سبيلًا، فكان إذا تغزَّل تألَّم وشكا، وليس في غزله غير شكوى وآلام.

وقد أفاضت قصته في أخبار حبه لعلبة، وتذمم والدها أن يزفها إليه، ولكن الرواة لم يعيروها جانبًا كبيرًا من عنايتهم، وإنَّما جعلوا همَّهم في التحدث عن وقائعه وعبوديته وتحرره، وإذا ذكروا عبلة أتوا بها عرضًا خلال هذه الروايات دون أن يشرحوا مأساته الغراميَّة التي تفصِّلها القصة أبلغ تفصيل مع أن شعره الصحيح لا يخلو من الإشارة إليها. فهذه المعلقة — وهي أثبت شعر له — تدلنا على أن والد عبلة كان يتنكر له،

ويهرب بابنته إلى ديار الأعداء ليبعدها عنه. فيشكو الشاعر الفارس عداوة قومها له، ومشقة الوصول إليها، أو يبعث جاريته تتجسس له أخبارها، فتعود إليه تقول إنها رأت غفلة من الأعداء تسهل طريق اصطياد الفتاة:

فبعثتُ جاريتي وقلتُ لها اذهبي وتجَسَّسي أخبارَها ليَ واعلَمي
قالتْ رأيتُ منَ الأعادي غِرَّةً والشَاةُ مُمْكِنَةٌ لمن هُوَ مُرْتمِ
يا شاةُ ما قَنَصٍ لمن حَلَّتْ له حَرُمتْ عليَّ ولَيتَها لم تَحرُمِ!

أو يقول:

حَلَّتْ بأرْضِ الزّائرينَ فأصْبَحَتْ عَسِرًا عليَّ طِلابُكِ ابنةَ مَخرَمِ
عُلِّقتُها عَرَضًا وأقتلُ قَوْمَها زَعَمًا لَعَمرُ أبيكِ ليسَ بمَزعَمِ[١٢٤]

فعبلة في أرض الزائرين — أي الأعداء — وقومها هم الذين ذهبوا بها إليهم، فاضطرَّ عنترة إلى مقاتلة الأعداء ومقاتلة أهلها معهم، فأصبح طلبها عسيرًا عليه. كيف يطلبها وهو يقتل قومها؟ إن في ذلك لطمعًا منه في غير مطمع: «زعمًا، لعمر أبيك، ليس بمزعم.» ولماذا أرسل جاريته إلى أرض الأعداء، تتجسَّس أخبار حبيبته، أليس لكي يأخذهم على غرة، كما تخبرنا القصة أنَّه أخذ بني كندة وهم في غفلة العرس، فقتل فارسهم مسحلًا، واستنقذ عبلة منه قبل أن يتزوجها. ثم تلك الشكوى يرسلها قلبه الجريح: «حرمت عليَّ وليتها لم تحرم.» أفما تنطق كفاية بما لقي عنترة العاشق من اليأس والحرمان؟

على أن اليأس والحرمان لم يرافقا عنترة، طوال حياته، في القصة، فقد رقَّ له قلب عمِّه مالك فزوَّجه عبلة، واشتفى قلبه الكليم، أمَّا التاريخ فلا يقطع بخبر الزواج ولا ينفيه. فالسيوطي مثلًا، يخبرنا بأن والد عبلة اعترف بابن أخيه ووعده أن يزوِّجه ابنته إذا أنقذه من الأسر. وقد أنقذ عنترة عمَّه وأنقذ عبلة معه. فهل برَّ مالك بوعده فأعطاه ابنته، أو أنَّه كان مخادعًا له حتى إذا انطلق سراحه عاد إلى دفعه ومماطلته، فقضى الفارس الأسود حياته بين وعد ورد ويأس وأمل؟ ثم هل بقيت عبلة عزبة لم تتزوَّج، إذا كان الحظُّ لم يسمح لعنترة بقضاء لبانته منها؟ تلك أسئلة ربَّما لا نعدم أن نجد جوابًا عنها في شعره الثابت، وإن كان الرواة يسكتون عنها أو لا يردون ردًّا صريحًا.

وشعر عنترة الذي وصل إلينا وأثبته الرواة، لم يقتصر — في غزله — على عبلة وحدها، بل يتناول أحيانًا سُمَيَّة أو سُهيَّة امرأة أبيه، وكان يهواها في صباه وقد ضربه

والده من أجلها. ويتناول أيضًا امرأة اسمها رقاش، ولا نعلم عن هذه المحبوبة شيئًا، فهي نكرة لا تُعرف إلا باسمها، ولكن الرواة يخبروننا بأنَّه كان لعنترة زوجة من بجيلة، فقد تكون هي رقاش، أو رقاش غيرها.

ومهما يكن الأمر فغزل عنترة في عبلة خير شعره من هذا النوع، وإن كان لا يقاس بحماسياته، وإذا كان قد أصاب بغزله شهرة بين العامة، فيعود الفضل في ذلك إلى شعره المصنوع في القصة، فقد حُمل عليه غزل كثير ليس له يد فيه البتة. ونحن يهمنا غزله الصحيح، وغزله في عبلة خصوصًا، لعلنا نلقى جوابًا عن الأسئلة التي مرَّ ذكرها. وأشهر ما وصل إلينا من غزله في عبلة ما جاء في المعلقة، فقد خصَّ عنترة طويلته الحسناء بابنة عمه، ثم بذكر معاركه ومبارزاته. ونستدل منها — كما قلنا — على حرمانه وتظلمه من قوم عبلة؛ لأنَّهم بعدوا بها ونزلوا في أرض الأعداء، فمنعوها منه: «حرُمت عليَّ وليتها لم تحرم!» فعنترة في المعلقة لم يتزوج عبلة، وإنَّما يشكو فراقها وجور أهلها عليه. فإذا كانت المعلقة نُظمت دفعة واحدة في زمن واحد، فيكون الشاعر قد بقي طوال حياته محرومًا ابنة عمِّه؛ لأنَّه ذكر فيها حرب داحس والغبراء، وهذه الحرب انتهت قبل وفاة الشاعر ببضع سنوات. وله قصيدة أخرى يتبيَّن منها أن عبلة تزوجت رجلًا غيره، يصفه شاعرنا بأنَّه بادن كثير اللحم:

فلَرُبَّ أبلَجَ مثلِ بعلِكِ بادِنٍ ضَخمٍ على ظَهرِ الجوادِ مهبَّلِ[١٢٥]
غادَرْتُهُ مُتَعَفِّرًا أوصالُهُ والقَومُ بَينَ مُجَرَّحٍ ومُقَتَّلِ

وهذه القصيدة معروفة له يثبتها الرواة ولا يدفعونها. وليس في سائر شعره الصحيح ما يدلنا على أنَّه حظي بابنة عمِّه كما تقول القصة، وإنَّما هو يشبب بها، ويؤثرها على جميع النساء، وإن لم يقصر غزله عليها:

ولئن سألتَ بذاكَ عبلةَ أخْبَرَتْ أن لا أُريدُ مِنَ النِّساءِ سواها

وغزل الشاعر في عبلة — لا مشاحة — أفضل غزل قاله؛ لأنَّه يمثل حرمانه ولوعته وتظلمه، ويبدو أثر العراك العنيف بين حبِّه وسواد لونه وضعة نسبه. فعبلة لم ترافق عنترة في شعره الغزلي وحده؛ بل رافقته في فخره وحماسته وذكر حروبه، فإنَّما هو يفتخر ويغامر من أجلها. وإذا لم يكن لديه من جمال الصورة وكرم المحتد ما يشفع

به إليها، أفلا يسعى لإرضائها بوصف شجاعته وجوده وعفته، وذكر وقائعه ومشاهده، حتى إذا ذُكر لها في مجلس تستطيع أن ترفع رأسها به؟

فبمثل هذا الشعر يبدع عنترة؛ لأنَّه يصور نفسيته أبلغ تصوير، ويعطينا طرازًا فاخرًا من غزل الفرسان، وكيف تجتمع ألفاظ الحبِّ بألفاظ الحرب. فنراه يعرض معاركه على عبلة لتشهد مواقفه في مبارزة الأبطال أو مزاحفة الجيوش. ويصف لها الفارس الذي يبارزه، فإذا هو بطل تتحاماه الأبطال خشية لقائه، وكريم طيب المحتد من أولئك البيض الأحرار الذين يفاخرونه بأصلهم ونسبهم، فيظهر بذلك فضله في التغلُّب عليه، وهو العبد المغموز النسب.

ويصف معاركه، فإذا هي ملاحم تتشابك فيها الأبطال شاكية هولها بغماغم لا تُفهم. وبنو عبس يتقون به رماح الأعداء فما يرتد عنها، وإن ضاقت عليه فسحة الأقدام. والأعداء تلهج باسمه مشرعة رماحها إلى صدر جواده. فإذا هو ركن المعركة وقوامها وحجر رحاها وثفالها. وفي المعلقة وصف ملحمي جميل لهذه المعارك التي يعرضها عنترة أمام عبلة صورًا سريعة تبدو فيها بطولته بارزة الخطوط والألوان، ويبدو فيها كفاحه — على قوته — بين الحبِّ والحرب صورة لمأساته الغرامية التي مثلتها القصة على مسرحها، وأغفلها الرواة والمؤرخون.

(٦-١٠) منزلته

اتضحت لنا ميزة الشاعر الفارس، بما فيها من ألم ومرارة، وعرفنا طرقه في استرضاء عبلة، وفي فخره وحماسته ووصف وقائعه، والدفاع عن نسبه، والرد على معيِّريه، ولا ينبغي لنا أن نغفل عن تلك العذوبة التي نتذوقها في شعره فإنَّه رقيق على غير ضعف، سهل العبارة على غير إسفاف، ولا نعجب لوجود هذه الرقة في شعر عبد أسود خشن العيش، هائل المنظر، بل يجب أن ننظر إلى أخلاقه الحسنة، وتأثير الحب فيها، فإنَّما شعره صورة لنفسه.

ولعنترة منزلة عالية في الشعر، كما له منزلة عالية في الفروسية، وهو من الشعراء الذين يتنازع الرواة فيهم التقديم والتأخير. فقد روى الأصمعي عن ابن أبي طرفة قوله: «كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب،[١٢٦] والنابغة إذا رهب،[١٢٧] والأعشى إذا طرب،[١٢٨] وعنترة إذا كلِب.»[١٢٩] ولمعلقته قيمة أدبيَّة، لم يبخسها حقها الأدباء الأقدمون، فإن ابن سلَّام وصفها بقوله: «قصيدة نادرة.» وقال ابن رشيق: وقول عنترة: «هل غادر الشعراء

من متردم؟» يدل أنَّه يعد نفسه محدثًا، قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه، ولم يغادروا له شيئًا. وقد أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدم، ولا نازعه إيَّاه متأخر.

ونحن يمكننا أن نختم هذا البحث بقولنا: عنترة في المعامع سيد الفرسان، وعنترة في الحماسة سيد الشعراء …

(٧) الحارث بن حِلِّزة (القرن السادس)

(٧-١) حياته

هو أبو ظَلِيم الحارث بن حِلِّزة[١٣٠] بن مكروه بن يشْكُر البكري من وجوه قومه في العراق ينتهي نسبه إلى ربيعة. وكان حكيمًا رزينًا، حسن المصانعة، يجابه الخطوب بهدوء وروية، وهو الذي دافع عن بني بكر يوم التقاضي في حضرة الملك عمرو بن هند، بعد هلاك التغلبيين في أرض بني شيبان، كما ذكرنا في كلامنا على عمرو بن كلثوم. وقد علمنا أن النعمان بن هَرِم كان يومئذٍ خطيب البكريين، وهو رجل أصم أصلع من شيوخ بكر، من بني ثعلبة بن غُنْم بن يشكُر. فلمَّا دخل على عمرو بن هند، تحرش به عمرو بن كلثوم قائلًا: «يا أصم، جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم وهم يفخرون عليك.» قال: «وعلى من أظلت السماء يفخرون، ثم لا يُنكر ذلك.» قال عمرو: «والله لو لطمتُك لطمةً لما أخذوا لك بها.» فقال النعمان: «والله لو فعلت ما أفلتَّ بها أنت ومَن فضَّلك.» فغضب عمرو بن هند من هذا التعريض وكان يفضل بني تغلب على بني بكر. فرمَى النعمان بكلمة قارصة فردَّ عليه بأشدَّ منها، فتلظى الملك غيظًا وطرده من حضرته.

فوقف عند ذاك عمرو بن كلثوم وأنشد معلقته، ولكنه لم يحسن اصطياد الفرص، فقد بالغ في فخره حتى جاوز الحد، ولم يرعَ حرمة الملك فطاوله حاسبًا أنَّه نال المرام من خصومه البكريين بعدما طُرد خطيبهم، وإذا بالحارث بن حلزة يصدمه بمعلقته، فيصلح بها ما أفسد النعمان.

وكان ابن حلزة شاعر بكر قد أعدَّ قصيدة لهذا اليوم وروَّاها جماعة من قومه، فلمَّا قاموا بين يديه لم يُرضه إنشادهم، فقال: «إنِّي لا أرى أحدًا يقوم بها مقامي، لكن أكره أن أكلِّم الملك من وراء سبعة ستور ويُنْضَح[١٣١] أثري بالماء إذا انصرفت عنه.» وكان الحارث به وضح،[١٣٢] فأشفق من أن يفعل به الملك ما يفعل بسائر البرص، وقد جرت له عادة بذلك لكبريائه وعظم سلطانه. وقيل: بل هي عادة العرب في ذاك العصر.

فلمَّا طُرد النعمان بن هرم، وأنشد ابن كلثوم قصيدته، خاف الحارث على قومه وقال: «أنا محتمل ذلك.» وقيل للملك إن به وضحًا، فأمر بأن تمد بينه وبين الحارث سبعة ستور، فجُعلت. وأنشد الشاعر معلقته وهو يرتجف غضبًا، وكان متوكئًا على عَنَزَة[١٣٣] فأثرت في جسده دون أن يشعر لشدَّة غيظه. وبالغ الرواة في هذه العنزة، حبًّا للإغراب، فزعم ابن السيِّد في «أدب الكاتب» أنَّها ارتزَّت[١٣٤] في جسده، وزعم بعضهم أن العنزة كانت قوسًا، فاقتطمت[١٣٥] كفه وهو لا يشعر من الغضب.

ونحن نرى أن الرواة لا يقتصرون على الإغراب في قصتهم، بل يُغربون أيضًا في ألفاظها، إعظامًا لها، فهم يستعملون ارتزَّ بدلًا من غرز، واقتطم بدلًا من اقتطع؛ وفي ذلك ما فيه من التفنن والفكاهة.

وكان لقصيدة الحارث وقع حسن في نفس الملك فأُعجب بها، وكانت أمُّه هند تسمع، فقالت لابنها: «تالله ما رأيت كاليوم قطُّ رجلًا يقول مثل هذا القول، يكلَّم من وراء سبعة ستور.» فقال الملك: «ارفعوا سترًا وأدنوا الحارث.» وما زالت هند يزيد إعجابها به والملك يقول: «ارفعوا سترًا وأدنوا الحارث.» حتى أزيلت الستور السبعة، وأقعده الملك قريبًا منه على مجلسه، ثم أطعمه في جفنته، وأمر أن لا يُنضح أثره بالماء. ثم جزَّ نواصي السبعين الذين كانوا رهنًا في يده من بكر، ودفعها إليه، فلم تزل تلك النواصي في بني يشكر يفتخرون بها. وضُرب بالحارث المثل في الفخر فقيل: «أفخر من الحارث بن حلِّزة.» وكان من إعجاب الملك بقصيدته، أن أمره أن لا ينشدها إلا متوضِّئًا.[١٣٦]

وقد زعم الرواة أن الحارث ارتجلها ارتجالًا، كما زعموا أن عمرو بن كلثوم ارتجل طويلته، ومثل هذه المزاعم لا يعوَّل عليها. وحسبك أن تقرأ معلقة ابن حلزة، وترى ما فيها من التنسيق الفكري، وإعمال الروية، والدهاء في التعريض، وسرد الحوادث التاريخية، لتحكم بأنَّها ليست بنت ساعتها. ومن المعقول أن لا يشهد شاعرا بكر وتغلب يوم التقاضي إلا وهما على أهبة للدفاع والنضال. ولكن ما الحيلة في هؤلاء الرواة، وهم في أكثر أخبارهم يصطنعون المغالاة والإغراب، ولا سيما إذا تناولوا في حديثهم قبيلتين مشهورتين بالعداء كتغلب وبكر، ولا بد لكل قبيلة من رواة ينتسبون إليها، أو يحازبونها، فكيف تريد أن يجعل الراوية التغلبي عمرو بن كلثوم يرتجل معلقته، ولا يجعل الراوية البكري الحارث بن حلزة يجاريه في الارتجال؟! وممَّا يجدر بنا ذكره أن التنافس الجاهلي بين بكر وتغلب بقي له أثر قوي في الإسلام.

ويزعم الرواة أن الحارث بن حلزة عُمِّر خمسين سنة ومائة كما بُلِّغَها عمرو بن كلثوم. ولعلَّ في ذلك شيئًا من التنافس أيضًا. ولكنهم يجمعون على أن شاعر بكر كان شيخًا هرمًا يوم أنشد معلقته ولم يكن شاعر تغلب يومئذٍ كذلك.

(٧-٢) آثاره

آثار الحارث كأخباره لم يصل إلينا منها غير القليل، ولولا المعلقة لما كان فيها غَنَاء. وقد عرفنا الأسباب التي حملته على نظم معلقته فنحن ندرسها مستندين إلى هذه الأسباب، وهي السابعة والأخيرة بين القصائد الطوال.

(٧-٣) ميزته — المعلقة

عرفنا أن عمرو بن هند طرد النعمان بن هرم خطيب البكريين، وعرفنا أنَّه كان يؤثر تغلب على بكر، فكيف استطاع الحارث بن حلزة أن يستميل ملك العراق فيحمله على الحكم لقومه بعد أن كان الفوز مضمونًا للتغلبيين؟ وكيف أتيح له أن يرتق ما فتق سفاه[١٣٧] النعمان بن هرم؟

لا ريب أن اندفاع عمرو بن كلثوم في الفخر والحماسة والإساءة إلى الملك مهَّد بعض السبيل لأن يُصلح البكريون ما أفسد خطيبهم. ولكن لا بد لمن يضطلع بهذا الخطب أن يكون كالحارث بن حلزة ليس في الشاعرية وحدها بل في الدهاء السياسي وقوة العارضة ورباطة الجأش. فقد وقف الشاعر يدافع عن قومه مثقلًا بغضب الملك وباشمئزازه من رؤيته فلم تطر نفسه ولا فُتَّ في عضده. وكان له من الدهاء وقوة العارضة ما ردَّ به أقوال شاعر تغلب، واسترضى عمرو بن هند.

ونحن إذا أنكرنا عليه ارتجاله المعلقة برمتها فلا ينبغي أن ننكر ارتجال بعضها، فمَثَلُ الحارث في الدفاع عن قومه مثل المحامي البليغ الذي يُعِدُّ خطابه ليدافع عن موكله، ولكنه لا يستغني ساعة التقاضي عن شيء يبتدهه ليقرَع به حجج خصومه. وسنرى في درسنا المعلقة أبياتًا تدلُّ على أنَّها قيلت ارتجالًا.

(٧-٤) الغزل ووصف الناقة

يبتدئ الشاعر قصيدته بالتغزل وذكر الفراق. ولكنه صاحب جدٍّ وحزم فما يطيل غزله بل ينتقل إلى وصف ناقته التي يستعين بها على الهم، وهو مقتصد في وصف ناقته التي شبهها بالنعامة كاقتصاده في غزله لا يلبث أن يتناول الغاية التي يرمي إليها دون أن يضيع وقته في ما لا يفيد.

(٧-٥) رده وفخره

يستهل الشاعر هذا القسم بذكر دعوى تغلب على بكر واستعدادها للحرب، وهي توطئة فنية لمحامٍ يريد أن يلمس الموضوع ليشرع في الدفاع:

وأتانا منَ الحَوادِثِ والأنـ ـباءِ خَطْبٌ نُعْنى بهِ ونُساءُ
أنَّ إخْوانَنا الأراقِمَ يَغْلو نَ عَلَينا في قِيلِهِمْ إحْفاءُ[١٣٨]
يَخلِطونَ البريءَ مِنَّا بذي الذّنـ ـبِ ولا يَنفَعُ الخَلِيَّ الخلاءُ![١٣٩]
زَعَموا أنَّ كلَّ مَنْ ضرَبَ العَيْـ ـرَ مُوالٍ لَنا وَأنَّا الوَلاءُ[١٤٠]

فانظر إلى هذه النعومة في قوله: «إن إخواننا الأراقم.» وقوله: «زعموا أن كل من ضرب العير.» وقابل بها نزقَ عمرو بن كلثوم في خطابه البكريين: «إليكم يا بني بكر إليكم!» وقوله: «ألا لا يجهلنْ أحد علينا!» فترى الفرق بين الشاعرين من حيث الرزانة والدهاء، ومن حيث الخبث إن صحَّ التعبير.

ثم يأخذ في الرد على عمرو بن كلثوم، وتسفيه شكوى التغلبيين، ونرجح أن ردوده على شاعر تغلب ارتجلت ارتجالًا.

وبعد أن يذكر شيئًا من مفاخر البكريين ينتقل إلى مدح والد عمرو بن هند، وكأن الشاعر بعد أن بسط دعوى التغلبيين وأظهر بطلانها، أراد أن يلقي على عاتقهم تبعة الحرب، إذا كان لا بد من نشوبها، فعاد إلى خطابهم، وشرع يذكرهم ما بينهم وبين بكر من حِلْف وعهود، ويحذرهم من نقضها. ثم أخذ يعيرهم أيَّامًا غُلبوا فيها مبينًا انكساراتهم ليغض من شأنهم لدى الملك، متخذًا أسلوبًا ناعمًا موجعًا، فلم يقل لهم ابتداءً: أنتم انهزمتم يوم كذا أو يوم كذا، بل زعم أنَّهم يطالبون بكرًا بذنوب غيرها من

القبائل، فجعل يسمي تلك القبائل التي انتصرت على بني تغلب ويقول لهم: «أعلينا يقع الذنب إذا قهركم بنو كندة، وبنو قضاعة، وبنو العباد إلخ ...»

ثم ذكَّرهم، وذكَّر عمرو بن هند، بمقتل والده المنذر، وفتكه بهم، لإحجامهم عن نصرته في طلب الثأر. وكأنَّه أراد بهذه الذكرى، إيغار صدر الملك عليهم. وكان ذلك آخر سهم مسنون، رشقه من كنانة تهكُّمه وتعييره.

وبعد أن بلغ أمنيته من أعدائه، ورماهم بقاصمة الظهر، مال إلى عمرو بن هند، يمدحه ويسترضيه، ويذكِّره متطِّفًا ما لقومه البكريين من الأيادي البيض على المناذرة، وما يجمعهم وإيَّاه من صلة وقربَى. فتوصل إلى غرضه بحكمته ودهائه، وحسن تنسيق دفاعه، فخذل خصمه واستمال الملك إليه، ففضَّل قصيدته على قصيدة عمرو بن كلثوم، وقضى لبني بكر على بني تغلب، ولسنا نعجب لفوز الحارث، فإن قصيدته، وإن تكن دون قصيدة ابن كلثوم روعةً وإيقاعًا وانسجامًا، فهي تفوقها من حيث الفن الخطابي، سواءٌ في ترتيب أفكارها، أو في الأسلوب الحكيم الذي اتخذه الشاعر لتعيير التغلبيين، واسترضاء عمرو بن هند. فعمرو بن كلثوم افتخرَ وغالى، ولكن بنى أكثر مفاخره على الأوهام والادِّعاء الفارغ، وأما الحارث فإنَّه افتخر وأكثرَ الافتخار، ولكن بنى مفاخره على الحقائق التاريخيَّة، فلم يترك يومًا لبني بكر إلا ذكره، ولا يومًا على بني تغلب إلا عيرهم إيَّاه. وعدا ذلك، فعمرو بن كلثوم أساء التصرُّف في إغضاب الملك، والحارث أحسن التصرُّف في استرضائه.

ولا نرى حاجة إلى تعداد ما في هذه القصيدة من الفوائد التاريخية؛ فإنَّما هي قصة جامعة لطائفة من أيَّام العرب وأخبارها، وهذا ما جعلنا ننفي عنها زعم الارتجال. ويجمل بنا أن ننظر إلى ما فيها من إيجاز دقيق، فأكثر أبياتها يحتاج إلى شرح مستفيض، لضيق لفظه عن معناه. والإيجاز خاصة ظاهرة في شعر الحارث، فهو مولع به حتى السَّرَف. وأئمة البيان يستشهدون ببيت له على الايجاز المُخل وهو قوله:

والعَيْشُ خَيرٌ في ظِلا لِ النَّوكِ مِمَّن عاشَ كدَّا[١٤١]

فلفظه لا يفي بالمعنى؛ لأنَّه يريد أن يقول: «إن العيش الناعم في ظلال الحمق خيرٌ من العيش الشاق في ظلال العقل.»

(٧-٦) منزلته

قال أبو عبيدة: أجود الشعراء قصيدة واحدة طويلة، ثلاثة نفر: عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وطرفة بن العبد. وقال أبو عمرو الشيباني: لو قالها في حول لم يُلَم.

ولا بدع أن يُعجب بها الأدباء الأقدمون، فإنَّما هي رائعة من روائع الشعر الخطابي، وخير مثال للشعر السياسي في الجاهلية.

هوامش

(١) أي رجل الشدة.

(٢) قيل إنه لقب بذلك لقوله: وبدلت قرحًا داميًا بعد صحة.

(٣) لقوله: أذود القوافي عني ذيادًا.

(٤) لتطوافه على القبائل مستنجدًا.

(٥) روي أنه كان على شراب لما جاءه خبر أبيه، فقال: اليوم خمر وغدًا أمر. وقد ذكر هذا المثل أيضًا للمهلهل لما نعي إليه أخوه.

(٦) قطر البعير: طلاء بالقطران. المهنوءة: الناقة المطلية بالقطران. يقول: أيقتلني وأنا لم أفعل شيئًا غير أني شفيت قلبها الجريح؛ إذ طليته ببلسم الحب كما تطلى الناقة الجرباء بالقطران فتزول عنها الآلام. وليس بمستنكر على شاعر في الجاهلية أن يأتي بهذا التشبيه الخشن، فالتشابيه تختلف باختلاف العصور والأمكنة، وما نراه اليوم قبيحًا مكروهًا كان بالأمس مستحبًّا حسنًا. وفي هذا البيت إشباع كما لا يخفى، والإشباع مألوف في شعر المتقدمين.

(٧) تعطو: تتناول. الشثن: الخشن الغليظ. إسحل: شجر دقيق الأغصان تصنع منه المساويك، فشبه بها بنان الحبيبة في الدقه والاستدارة.

(٨) الحبي: السحاب المتراكم. المكلل: الذي صار أعلاه كالإكليل.

(٩) عنَّ: عرض وظهر. السرب: القطيع. النعاج: يراد بها هنا إناث بقر الوحش. العذارى: الأبكار، مفردها عذراء. الدوار: حجر كان عرب الجاهلية ينصبونه ويطوفون حوله تشبهًا بالطائفين حول الكعبة إذا نأوا عنها. الملاء، جمع ملاءة: وهي القطعة من القماش إذا كانت ذات لفقين. المذيل: طويل الذيل. يقول: فعرض لنا قطيع من بقر الوحش كأن إناثه عذارى يطفن حول الدوار، وشبه المها في بياض ألوانها بالعذارى؛

لأنهن مصونات في الخدور لا يغير ألوانهن حر الشمس، وشبه طول أذنابها بالملاء المذيل وحسن مشيها بحسن تبختر العذارى.

(١٠) صرمي: هجري. أجملي: اتئدي واعتدلي.

(١١) تنور: نظر النار من بعيد. أذرعات: بلد في الشام ينسب إليه الخمر. يثرب: مدينة الرسول. يقول: نظرت نارها من أذرعات وهي في يثرب فابتهجت لمرآها؛ لأن أدنى شيء من دارها هو أمر عظيم عندي، والرؤية هنا قلبية لبعد المسافة بين المكانين.

(١٢) بعلها: زوجها. القتام: الغبار الأسود أو السواد والظلام. يقول: أصبحت لها عشيقًا وأصبح زوجها وقد عرف بأمرنا، مسودَّ الوجه، مغير اللون، مكسور الخاطر.

(١٣) المؤثل: الأصيل العريق.

(١٤) المهفهفة: اللطيفة الخصر الضامرة البطن. المفاضة: المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم. الترائب، جمع تريبة: عظام الصدر أو ما بين الثديين والترقوتين. السجنجل: المرآة، رومية معربة. يقول: هي امرأة دقيقة الخصر غير عظيمة البطن ولا مسترخية اللحم وصدرها براق اللون مصقول كالمرآة.

(١٥) القربة: الجراب يحمل فيه الماء. العصام: وكاء القربة، أي رباطها. الكاهل: أعلى الظهر. المرحل: المعتاد الحمل. يقول: إنه تعود خدمة الرفقاء في السفر بحمله قربة الماء على ظهره.

(١٦) الجوف: باطن الشيء. العير: الحمار. الخليع هنا: المقامر. المعيل: الذي كثر عياله. وتشبيه الوادي ببطن الحمار بني على أسطورة قديمة رواها الزوزني في شرحه المعلقة وهي: أن رجلًا من بقية عاد اسمه حمار كان متمسكًا بالتوحيد فسافر بنوه فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم فأشرك بالله وكفر بعد التوحيد؛ فأحرق الله أمواله ووواديه فلم ينبت بعده شيئًا، وقد غير الشاعر اللفظ إلى ما وافقه في المعنى لإقامة الوزن. المعنى: رب واد كوادي الحمار في الخلاء من النبات والإنس طويته سيرًا وكان الذئب يعوي فيه من فرط الجوع كالمقامر الذي كثر عياله وهو يصيح بهم ويخاصمهم إذ لا يجد ما يرضيهم به.

(١٧) شأننا: أمرنا. تمول: أي تتمول على حذف التاء. وتمول الرجل: صار ذا مال. يقول: فقلت له إن كنت غير متمول فأمرى وأمرك سيان في قلة الغنى.

(١٨) أفاته: أنفقه وبذره. الحرث: في الأصل إصلاح الأرض وإلقاء البذر فيها، وهو مستعار هنا للسعي والكسب. يقول: كل واحد منا إذا ظفر بشيء أنفقه. ثم قال: ومن سعى سعيي وسعيك افتقر وعاش مهزول العيش.

(١٩) الأثمد: اسم موضوع. يخاطب نفسه هنا على سبيل التجريد أو الالتفات.

(٢٠) أذود: أدفع. الجراد: الجنادب التي تجرد الأرض. يقول: أدفع الأشعار وأردها عني إذا كثرت فعل غلام جريء يدفع عنه الجراد إذا كثر عليه.

(٢١) عنينه: أثقلنه وأرهقنه.

(٢٢) المرجان: الخرز الأحمر أو صغار اللؤلؤ لا كباره، ويراد بها هنا الأبيات الضعيفة غير الجيدة.

(٢٣) أحار: ترخيم أحارث. هب البرق: أومض. وَهْنًا: ليلًا.

(٢٤) الدرداء: من ذهبت أسنانها.

(٢٥) الرهط: القوم ما دون العشرة وليس فيهم امرأة.

(٢٦) تصبب: أي تتصبب على حذف التاء.

(٢٧) أشار في هذا البيت إلى حرب البسوس.

(٢٨) التشراب: الشرب الكثير. الطريف: المال المستحدث. المتلد: المال الموروث. يقول: ما زال شرب الخمر، واللذة والبيع والإنفاق، أشياء تلازمني كأنها طريفي ومتلدي، أو كأنها بمنزلة الطريف والمتلد من الحريص على الأموال. فيكون الطريف والمتلد خبرًا لما زال، وإذا قدرنا الخبر محذوفًا: أي ما زالت هذه الأشياء ديدني، يكون طريفي ومتلدي مفعولًا لإنفاقي.

(٢٩) تحامتني: تجنبتني. المعبد: المطلي بالقطران لجربه، وهو يبعد ويعزل لئلا يعدي الإبل السليمة. يقول: ما زلت أفعل ذلك حتى تجنبتني عشيرتي كلها وأبعدتني عنها كما يبعد الجمل الأجرب المطلي بالقطران عن الإبل السليمة.

(٣٠) لمسود: أي لوالد مسود، يعني نفسه.

(٣١) الرغوث: كل مرضعة، ويراد بها الناقة هنا.

(٣٢) النوك: الحمق.

(٣٣) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، وهو أقصر الأضلاع وآخرها. الأهضم: اللطيف.

(٣٤) الحدباء من الأمور: الشاقة منها.

(٣٥) الحجة: السنة. توفاها: استكملها. ضخم: كبير.

(٣٦) إيابه: رجوعه. قحم: شيخ هرم.

(٣٧) هر: اسم امرأة.

(٣٨) تحلاق: مبالغة في الحلق. اللمم: جمع لمة: الشعر المجاوز شحمة الأذن، وتحلاق اللمم هنا: يوم من أيام بكر وتغلب حلق فيه البكريون رءوسهم لتعرفهم نساؤهم إذا سقطوا جرحى فتسقيهم الماء، وتجهز بضرب الخشب على جرحى تغلب.

(٣٩) خولة: اسم امرأة. البرقة: مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى. ثهمد: اسم موضع. الوشم: غرز ظاهر اليد وغيره بالإبرة وحشو المغارز بالكحل. يقول: إن آثار هذه الديار تلمع كآثار الوشم في ظاهر الكف.

(٤٠) وقوفًا: منصوبة على الحال، أي بدت أطلال خولة كالوشم في حال وقف أصحابي مطيهم علي، أي لأجلي. أَسًى: حزنًا، نصبت على أنها مفعول له. تجلد: تصبر. يقول: إنهم وقفوا عليه رواحلهم يأمرونه بالصبر وينهونه عن الجزع. وقد ورد هذا البيت في معلقة امرئ القيس وقافيته تجمل بدلًا من تجلد. والتجمُّل: الاعتصام بالصبر الجميل.

(٤١) الاحتضار والحضور واحد. العوجاء: الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها. المرقال: مبالغة مرقل من الإرقال، وهو بين السير والعدو. تروح وتغتدي: أي تواصل سير الليل بسير النهار.

(٤٢) النسع: سير تشد به الأحمال.

(٤٣) السكان: دفة السفينة.

(٤٤) الحَجَاج: العظم المشرف على العين.

(٤٥) الناجي: البعير السريع ينجو براكبه. الصيعرية: سمة توسم بها النوق في اليمن دون الجمال. المكدم: الموسوم.

(٤٦) الغثاء في الأصل: البالي من ورق الشجر المخالط زبد السيل، وهو هنا الساقط من الشعر.

(٤٧) الخنساء: أخت زهير هي غير تماضر بنت عمرو بن الشريد أخت صخر الشاعرة المشهورة.

(٤٨) الأنماط، جمع النمط: وهو ضرب من الثياب يبسط. العتاق: الكرام. الكلة: الستر. وراد، جمع ورد: وهو الأحمر. الحواشي: الجوانب. مشاكهة: مشابهة، والباء في قوله: علون بأنماط، للتعدية، أي أعلين أنماطًا. المعنى: أن هؤلاء النسوان طرحن على الهوادج أنماطًا كرامًا وسترًا رقيقًا، ثم وصف تلك الثياب بأنها حمر الحواشي، وأن حمرتها تشبه لون الدم.

(٤٩) الأحلاف: أسد وغطفان وطي. ذبيان: قبيلة الممدوحين، وهي من غطفان.

(٥٠) ضريبته: خليقته.

(٥١) يرى الأصمعي أن زهيرًا أخذ فكرة البعث عن اليهود كما ذكر الأب لامنس في كتابه مهد الإسلام.

(٥٢) يشك بعضهم في هذا الكلام المنسوب إلى زهير لقربه من تعبير القرآن.

(٥٣) الخطي: الرمح منسوب إلى الخط، وهي جزيرة في البحرين. الوشيج: القنا الملتف في منابته. يقول: لا تنبت القناة إلا القناة، ولا تغرس النخل إلا بحيث تنبت وتصلح، وكذلك لا يولد الكرام إلا في موضع كريم.

(٥٤) يعاظل: يأتي بالتضمين، أي أن تتعلق قافية البيت بما بعده على وجه لا يستقل بالإفادة، وهو عيب في الشعر.

(٥٥) المقترين: الفقراء.

(٥٦) الهامة: الرأس. مقزعة: محلوقة، من القَزَع، وهو أن يحلق رأس الصبي وتترك مواضع منه متفرقة غير محلوقة تشبيهًا بقزَع السحاب أي بقِطَعه. الهيجا: الحرب، وأصلها بالهمز. الدعة: الراحة. المعنى: أن الغلام الشاعر يفضل الحرب على الراحة وتزيين الرأس.

(٥٧) مسبعة: ذات سباع كثيرة، وقوله: يا واهب الخير، خطاب للنعمان.

(٥٨) الجفان: القصاع ومفردها جفنة. مترعة: مملوءة، وقوله: سيوف حق وجفان مترعة، أي أبطال حروب وقُراة ضيفان.

(٥٩) خيار الشيء: أفضله. الهام، جمع الهامة: الرأس. الخيضعة: البيضة التي تلبس على الرأس في الحرب.

(٦٠) المدعدعة: المترعة. أبيت اللعن: دعاء في الجاهلية وتحية للملوك، أي أبيت أن تفعل ما تلعن به.

(٦١) إلى الحول: أي زورا قبري كل يوم وافعلا ما أمرتكما حتى يمضي الحول فحسبكما ثم السلام عليكما، ولفظ اسم هنا زائد.

(٦٢) النفل: الغنيمة والهبة. الريث: البطء.

(٦٣) الند: المثل والنظير.

(٦٤) كفر: ستر.

(٦٥) الصبوح: الشرب في الصباح. الكرينة: الجارية العوادة. بموتر: أي ذي أوتار. تأتاله: تصلحه «تدوزنه». يقول: ادفع البرد والريح عني باصطباح خمرة صافية، وسماع عوادة تجذب أوتار عودها وتصلحه بإبهامها.

(٦٦) أوفى: وفَّى ولم ينقص. يقول: وإذا قسمت الأمانات بين الناس كان القسم الأوفر لنا، والباء بأوفر زائدة.

(٦٧) أربد: أخو لبيد لأمه، ذهب في وفد من بني عامر إلى المدينة بعد ظهور دعوة محمد ليدخلوا في الدين الجديد، ولكنه عاد ولم يسلم، وبينا هو في الطريق انقضَّت عليه صاعقة فقتلته، وفي ذلك يقول لبيد:

فجعني الرعد والصواعق بالـ ـفارس يوم الكريهة النجدِ
يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبدِ
إن يشغبوا لا يبال شغبهمُ أو يقصدوا في الخصام يقتصدُ

(الكبد: الأمر الشاق.)
(يشغبوا: يهيجوا الشر. يقصدوا: يعتدلوا.)

(٦٨) الجزع: ضد الصبر. فاجع: موجع.

(٦٩) تلمم: من ألم أتى ونزل. الدمن: آثار الديار. الخوالي: الخالية من أهلها. المذائب والقفال: موضعان.

(٧٠) الرسيس ومعاقل والأنعمان: مواضع، وشوم: جمع وشم، وهو ما نقش على اليد بالكحل. شبه آثار الديار بالوشوم.

(٧١) هوازن: القبيلة الجامعة التي ينتمي إليها بنو عامر.

(٧٢) أقاد الأمير القاتل بالقتيل: قتله به قودًا، أي قصاصًا.

(٧٣) الطرف، جمع طرفة: وهي الملحة، ويراد بها هنا ما يقدم بعد الطعام من حلواء وفاكهة.

(٧٤) مصلتًا: مجردًا. الندمان: المنادم على الشراب. المخنق: العنق؛ لأنه موضع حبل الخنق.

(٧٥) جلله ضربة: جعل الضربة غطاءً له. بذي شطب: بسيف ذي طرائق في متنه. رونق: أي ذي رونق، ورونق السيف طلاوته.

(٧٦) اللذا: اللذان. الأغلال: القيود.

(٧٧) عنوة: قوة واقتدارًا. قسطوا: جاروا وظلموا.

(٧٨) لحا: أخزى. زلفة: منزلة.

(٧٩) القروط: الحلق، مفردها قرط. الشنوف: القروط أو ما يعلق في أعلى الأذن خلافًا للقرط، مفردها شنف. يثرب: مدينة الرسول.

(٨٠) القد: قيد من جلد يقيد به الأسير.

(٨١) المثلة: التنكيل والتشنيع بالقتل، وقوله: يا لربيعة، وهي القبيلة الجامعة التي ينتسب إليها بنو تغلب؛ لأن قبائل البحرين وما يليها أكثرهم من ربيعة بن نزار، فهو يستغيث بأنسبائه وأعدائه في وقت واحد.

(٨٢) حجر: قصبة باليمامة.

(٨٣) عتيًا: أي وصل إلى حيث ولى أمره.

(٨٤) يقول: رب طلب ترده خير من وعد لا تفي به.

(٨٥) عوا: احفظوا ما تسمعونه.

(٨٦) الإهذار: الهذيان.

(٨٧) العطوف: الذي يعطف على المنهزمين فيحميهم.

(٨٨) يعتب: يعطي الرضى ويترك ما كان يغضب لأجله، والمعنى: لا خير فيمن إذا استُرضي لم يرضَ.

(٨٩) البكوء: قلة اللبن. الدر: كثرة اللبن.

(٩٠) القيل: الملك دون الملك العظيم. القطين: الخادم.

(٩١) الحي الحلال: القوم النازلون في مكان.

(٩٢) مسئوم: مملول.

(٩٣) العنترة: واحدة العنتر، وهو الذباب.

(٩٤) المغلس: السائر في الغلس، وهو ظلمة آخر الليل.

(٩٥) الفلحاء: مؤنث الأفلح، وهو المشقوق الشفة السفلى، وإنما قيل له الفلحاء بالتأنيث حملًا على تأنيث اسمه أو على إرادة الشقة الفلحاء.

(٩٦) أغربة: جمع غراب، ويضرب به المثل في السواد.

(٩٧) السليك: تصغير السلك، وهو فرخ القطا أو الحجل، ومؤنثه السلكة.

(٩٨) سمح المخالقة: أي سهل المخالطة.

(٩٩) الطوى: الجوع.

(١٠٠) الظعينة: المرأة في الهودج.

(١٠١) آبت: رجعت.

(١٠٢) الكبوة: السقطة. الجلب: الصياح.

(١٠٣) الناذرين: من نذر الشيء على نفسه أوجبه. يقول: يوجبان على أنفسهما سفك دمي إذا لم أرهما، يريد أنهما يتوعدانه في حال غيبته فأما في حال الحضور فلا يتجاسران عليه.

(١٠٤) جزر السباع: فريسة السباع. القشعم: النسر المُسنُّ. يقول: إن يشتماني ويتوعداني فلا بدع لأني قتلت أباهما.

(١٠٥) يقول: حظ بني نبهان من هذه الطريدة أخبث الحظوظ، وكأن آثار أقدامها وأنا أطردها أمامي الحِثحِث (موضع) آثار ظلمان في قاع محدث، أي جديد غير معروف قبلًا. والظلمان: جمع ظليم، وهو ذكر النعام. والقاع: أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال والآكام.

(١٠٦) المطا: الظهر.

(١٠٧) الثريا: سبعة كواكب في عنق الثور، والثور: اسم نجم. المتهضم: الذليل المغصوب. يقول: هو يتمشى في جبال طيئ غير ذليل ولا يُغصَب مكانُه، فكأنه في الثريا.

(١٠٨) لم يدهش: لم يتحير. الأزرق: السهم. اللهذم: الطويل الحاد. نعف ومخرم: موضعان.

(١٠٩) الأسد الرهيص: الثابت في مكانه، والرهيص: الحائط المبني.

(١١٠) الدغل: الشجر الكثير الملتف.

(١١١) الربيئة: طليعة الجيش، وهو الذي يقف في مكان عالٍ لمراقبة الأعداء.

(١١٢) شرج وناظرة: ماءان لبني عبس.

(١١٣) يترافدون: يتعاونون.

(١١٤) الطعمة: الدعوة إلى الطعام.

(١١٥) المرافد: مجامع الرفد، أي العطاء.

(١١٦) التسويم: الإغارة.

(١١٧) اللبس: الحيرة والتباس الأمور واختلاطها.

(١١٨) خطة الفصل: طريقة فصل الأمور.

(١١٩) الفقع: الكمأة الرخوة البيضاء. القرقر: الأرض المنخفضة. ومن أمثالهم: «هو أذل من فقع بقرقر.»

(١٢٠) أحتضر: أي أحضر. البأس: الشدة على الحرب، ويجوز أن يؤخذ البأس بمعنى الحرب على سبيل المجاز، فيكون المعنى: إني أحضر الحرب.

(١٢١) الصماء: الصعبة كالصخرة الصماء.

(١٢٢) سمية: زوجة أبيه شداد.

(١٢٣) القذى: ما يقع في العين فيؤذيها. يقال: لا يغمض على قذى، أي يأبى الذل والضيم.

(١٢٤) زعمًا: طمعًا. مزعم: مطمع.

(١٢٥) أبلج: أبيض. مهبل: كثير اللحم.

(١٢٦) رغب: أي رغب في رغيبة، وهي الأمر المرغوب فيه والعطاء الكثير.

(١٢٧) رهب: خاف؛ لأنه نظم أحسن قصائده وهو طريد خائف من النعمان.

(١٢٨) لأنه كان يشرب ويطرب ويتغنى بشعره.

(١٢٩) كلب: غضب.

(١٣٠) الحلزة: اسم دويبة تكون في صدف، واسم للبومة، والذكر حلز. ويقال: امرأة حلزة للقصيرة والبخيلة، والحلز: السيئ الخلق. وقال قطرب: حكي لنا أن الحلزة ضرب من النبات ولم نسمع فيه غير ذلك. أما سبب تسمية والد الحارث بالحلزة فلم يذكره أحد من رواة أخباره.

(١٣١) ينضح: يغسل.

(١٣٢) وضح: برص.

(١٣٣) عنزة: رمح صغير فيه حديدة.

(١٣٤) ارتزت: غرزت.

(١٣٥) اقتطمت: اقتطعت.

(١٣٦) متوضئًا: مغتسلًا.

(١٣٧) السفاه: الجهل.

(١٣٨) الأراقم: بطون من تغلب سموا بها لأن امرأة شبهت عيون آبائهم بعيون الأراقم، أي الحيات، وهو يدعوهم إخوانه؛ لأن بكرًا وتغلب ابنا وائل. يغلون: يجاوزون الحد من الغلو، أو تغلي صدورهم حنقًا من الغليان. القيل: القول. الإحفاء: المبالغة والإلحاح. يقول مفسرًا ذلك الخطب: هو غليان إخواننا الأراقم علينا. أو غلوهم في عداوتهم ومبالغتهم في أقوالهم.

(١٣٩) الخلي: البريء. الخلاء: البراءة.

(١٤٠) اختلف الأئمة في شرح هذا البيت لاختلافهم في فهم لفظة «العير» حتى قال عمرو بن العلاء: «قد ذهب من كان يعرف معنى هذا البيت.» وخلاصة الآراء أن العير: السيد، وأراد به كليب وائل. فيكون المعنى: زعم بنو تغلب أن كل من رضي بموت كليب هو من حلفائنا. أو أن العير: الحمار. فيكون المعنى: زعموا أن كل من صاد حمارًا كان حليفنا، أي ألزموا العامة جناية الخاصة. أو أن العير: الوتد. فيكون المعنى: زعموا أن كل من ضرب وتد خيمة كان مواليًا لنا. وقوله: وأنا الولاء، أي أصحاب الولاء.

(١٤١) النوك: الحمق. الكد: التعب، وهو هنا بمعنى مكدود، أي متعَب.